تشيخوف

البغض الأول

مجموعة قصصية

ترجمة: مجموعة مترجمين

«الجزائر تقرأ»

العنوان: البغض الأول

المؤلف: تشيخوف

ترجمة: مجموعة مترجمين

الجزائر تقرأ

8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى،
الجزائر العاصمة/ الجزائر

إيميل: NASHR.DZREADS@GMAIL.COM

فايسبوك / تويتر / سنابشات / يوتيوب/ تلغرام @dzreads

إنستغرام @dz_reads

للمهتمين بالحصول على كتبنا، يرجى طلبها من متجرنا
الإلكتروني، توصيل لغاية باب البيت

DZREADS.COM

يمكن الحصول على هذا
الكتاب وغيره من كتب
الجزائر تقرأ الأخرى
وماتشتهيه من كتب عبر
متجرنا الإلكتروني مع توصيل
لباب البيت

DZREADS.COM

‹الجزائر تقرأ›

تشيخوف (1860/1904)

عن الكاتب[1]

أنطون بافلوفيتش تشيخوف (29 يناير 1860 – 15 جويلية 1904) طبيب وكاتب مسرحي ومؤلف قصصي روسي كبير ينظر إليه على أنه من أفضل كتاب القصص القصيرة على مدى التاريخ، ومن كبار الأدباء الروس. كتب المئات من القصص القصيرة التي اعتبر الكثير منها إبداعات فنية كلاسيكية، كما أن مسرحياته كان لها تأثير عظيم على دراما القرن العشرين. بدأ تشيخوف الكتابة عندما كان طالباً في كلية الطب في جامعة موسكو، ولم يترك الكتابة حتى أصبح من أعظم الأدباء، واستمرّ أيضاً في مهنة الطب وكان يقول «إن الطب هو زوجتي والأدب عشيقتي.»

كان تشيخوف يكتب في البداية لتحقيق مكاسب مادية فقط، ولكن سرعان ما نمت طموحاته الفنية،

1من ويكيبيديا

وقام بابتكارات رسمية أثرت بدورها على تطوير القصة القصيرة الحديثة. تتمثل أصالتها بالاستخدام المبتكر لتقنية تيار من شعور الإنسان، اعتمدها فيما بعد جيمس جويس والمحدثون، مجتمعة مع تنكر المعنوية النهائية لبنية القصة التقليدية. وصرح عن أنه لا للاعتذارات عن الصعوبات التي يتعرض لها القارئ، مصرًا على أن دور الفنان هو طرح الأسئلة وليس الرد عليها.

تولى تشيخوف مسؤولية دعم جميع أفراد الأسرة، ودفع الرسوم الدراسية عنهم، كان يكتب يوميًا مختصراً استكشافات فُكاهية ومقالات قصيرة من الحياة الروسية المُعاصرة تحت أسماء مستعارة. إخراجاته المُذهلة بدأت تكسبه السُمعة الطيبة تدريجيًا بأنه مؤرخ ساخر من حياة الشارع الروسي، وبحلول عام 1882 كان يكتب Oskolki (شظايا)، التي تعود مُلكيتها إلى نيقولاي ليكين، واحدة من الناشرين الكبار في ذلك الوقت. وكانت لهجة تشيخوف في هذه المرحلة أقسى مما هو مألوف.

في عام 1884، تخرج كطبيب، المهنة التي اعتبرها مهنته الرئيسية وقد أحرز القليل من المال من هذه الوظيفة وكان يُعالج الفُقراء مجانًا.

قبل فترة طويلة، استطاع تشيخوف أن يجذب الانتباه على المستوى الأدبي والشعبي. وقام الكاتب الروسي الشهير دميتري غريغوروفتش، 64 عامًا، بالكتابة لتشيخوف بعد قراءة قصته القصيرة وهنتسمان، «لديك موهبة حقيقية، موهبة تضعك في المرتبة الأولى بين الكُتاب في الجيل الجديد. في عام 1887، فازت مجموعة تشيخوف للقصص القصيرة في الشفق (V Sumerkakh) بجائزة بوشكين لأفضل إنتاج أدبي مُتميز بقيمة فنية عالية.

في عام 1890، قام تشيخوف برحلة شاقة بالقطار وعن طريق عربة تجرها الخيول، وبباخرة إلى الشرق الأقصى قادمًا من روسيا وكاتورجا، أو «مُستعمرة العقوبات»، في جزيرة سخالين في شمال اليابان، حيث قضى ثلاثة أشهر فيها وقام بإجراء مقابلات مع الآلاف من المحكوم عليهم. تُعتبر رسائل تشيخوف التي كتبها خلال رحلته المُتعة شهران ونصف الشهر لسخالين من أفضل ما كُتب في حياته. وقد أصبحت تصريحاته لأخته عن تومسك شهيرة.

في مارس 1897 تعرض تشيخوف إلى نزيف كبير في الرئتين بينما كان في زيارة لموسكو. وأقنع بصعوبة لكي

يذهب إلى العيادة، حيث قام الأطباء بتشخيص حالته وتبين لهم أنه مُصاب بمرض السل في الجزء العلوي من رئتيه، التي أدت إلى تغير نمط حياته فيما بعد.

بعد وفاة والده في عام 1898، اشترى تشيخوف قطعة أرض في ضواحي مدينة يالطا وبنى فيها فيلا، عندها انتقل مع والدته ومن ثُم شقيقته في العام التالي إليها. زرع فيها الأشجار والزهور في يالطا وحافظ على الكلاب واستقبل الضيوف مثل ليو تولستوي ومكسيم غوركي، كان يشعر دائمًا بارتياح عند تركه لسيبيريا الساخنة، من أجل السفر إلى موسكو أو إلى الخارج، وقد تعهد للانتقال إلى تاغانروغ حالما يتمُّ تثبيت إمدادات المياه هناك. في يالطا أكمل كتابة اثنتين من مسرحياته الفنية، الأخوات الثلاثة وبستان الكرز. في 25 مايو 1901 تزوج تشيخوف من أولغا كنيبر.

بحلول مايو 1904، كان أنطون تشيخوف مُصابًا بمرض السل. وأشار ميخائيل تشيخوف إلى أن «جميع من رأوه شعروا بداخلهم أن نهايته ليست ببعيدة» وفي 3 يونيو انطلق مع أولغا باتجاه مدينة الحمامات الألمانية BADENWEILER، في الغابة السوداء، حيث كتب

رسائل مرحة إلى شقيقته ماشا واصفًا المواد الغذائية والبيئة المحيطة، مؤكدًا لوالدته بأنه في تحسن مُستمر. وفي رسالته الأخيرة، شكى من طريقة لبس النساء الألمانيات.

وفاة تشيخوف أصبحت واحدة من «مجموعة من القطع الكبيرة من التاريخ الأدبي»، سرده، مطرزة، والخيال، لا سيما في مهمة القصة القصيرة التي كتبها كارفر رايموند. في عام 1908، كتبت أولغا هذا الأمر من لحظات زوجها الماضي: قام أنطون بشكل غير اعتيادي ومستقيم وقال بصوتٍ عالٍ وبوضوح (مع أنه لم يكن يتقن اللغة الألمانية):Ich sterbe («أنا على شرفة الموت»). فقام الطبيب بتهدئته وحقنه بمادة الكافور وأمر بإحضار الشمبانيا له. شرب أنطون كأس كامل منه ومن ثم ابتسم لي وقال: «لقد مضى زمن طويل منذ أن شربت الشمبانيا»، عندما شربه جلس على جانبة الأيسر بهدوء وكان لدي الوقت لأذهب إليه وأستلقي بقربه ونادیته، لكنه توقف عن التنفس وكان ينام بسلام وكأنه طفل...»

ونقلت جثة تشيخوف إلى موسكو في سيارة السكك الحديدية المبردة. دُفن تشيخوف بجانب والده في مقبرة نوفوديفيتشي.

حب في الشتاء

ترجمة: محمد فتحي عبد الوهاب

كان ذلك اليوم من أيام الشتاء المشرقة... والصقيع ينقصف في حدة، وقد كسا الجليد اللجيني خصلات شعر نادنكا المتهدلة على جبينها وحافة شفتها العليا.

وكانت ممسكة بذراعي ونحن واقفان على تل مرتفع، وقد امتد تحتنا المنحدر الأملس، تنعكس عليه أشعة الشمس كما لو أنه مرآة، وبجوارنا زاحفة مغطاة بقماش أحمر براق.

وقلت لها راجياً (فلننزلق يا نادبزدا بتروفنا! مرة واحدة فحسب! أؤكد لك أنك ستكونين بخير ولن تصابي بسوء).

بيد أن نادنكا ظلت مرتاعة، فقد كان يبدو لها المنحدر من موقع قدميها حتى سفح التل الثلجي وكأنه هوة مهولة عميقة الغور. وخانتها شجاعتها، وبهرت أنفاسها

كلما حدقت إلى أسفل، في الوقت الذي كنت أقترح عليها مجرد ركوبها الزاحفة. إذن ماذا يكون حالها إذا ما جازفت بالاندفاع إلى الهاوية؟ فلعلها تهلك أو لربما تفقد وعيها.

وقلت (أرجوك! لا تخافي! إنها شجاعة واهنة منك! أنه خور وضعف!)

وأخيراً أذعنت دونكا.. ولاحظت من ملامحها أنها قد رضخت وهي في حالة من الخوف المميت. وأجلستها على الزاحفة شاحبة مرتجفة، وأحطتها بذراعي. ثم دفعت بي وبها إلى أسفل الهاوية.

واندفعت الزاحفة وكأنها قذيفة. ولطم الهواء وجهينا مزجراً، وهدر في آذاننا يتمزق حولنا، ويقرصنا غاضباً في قسوة، محاولاً أن ينتزع رأسينا من أكتافنا. وتعذر علينا التنفس من ضغط الريح.

كان يبدو كما لو أن الشيطان ذاته قد أمسكنا بمخالبه، يسحبنا إلى الجحيم في هدير. واستحال كل ما يحيط بنا خطاً واحداً متماسكاً ممتداً يسابقنا سباقاً هائلاً... وخيل إلينا في لحظة كما لو أننا في طريق الردى.

وهتفت قائلاً في همس (إني أحبك يا ناديا!)

ثم أخذت الزاحفة الثلجية تقل سرعتها رويداً رويداً، ولم نعد نخشى هدير الريح. وسهل علينا التنفس. ثم إذا بنا في سفح الهضبة.

كانت نادنكا في حالة سيئة، شاحبة الوجه، تتنفس في صعوبة... وساعدتها على النهوض.

وأخيراً قالت وهي ترنو إلي بعينين واسعتين مفعمتين رعباً (ما من أحد في العالم يدفعني بعد ذلك إلى إعادة الكرة. لقد كدت أهلك!).

وإن هي إلا لحظة حتى استعادت رباطة جأشها، ثم تطلعت في عيني متسائلة، وقد لاح على محياها دلائل العجب: هل أنا تفوهت حقاً بهذه الكلمات الثلاث؟ أم كان ذلك وليد مخيلتها وسط زئير العاصفة؟ وكنت واقفاً بجوارها أدخن وأنا غارق في تأمل قفازي.

وأخذت بيدي، ثم قضينا وقتاً طويلاً نتجاذب أطراف الحديث على مقربة من التل الثلجي. وكان من الجلي أن اللغز لا يدع لها فترة للراحة... هل تفوهت بتلك الكلمات

أو لم أتفوه؟... نعم أو لا؟... نعم أو لا؟ إنها مسألة كبرياء، شرف، حياة - إنها شيء ذو أهمية كبرى، أهم مسألة في العالم.

وظلت نادنكا تتأمل وجهي في حزن واضح، وتخترق نظراتها النفاذة ملامحي في صبر نافذ، وتجيب على أسئلتي كيفما تعن لها الإجابة. أواه، يا لها من مشاعر تتلاعب على صفحة ذلك الوجه الجميل! شاهدت أنها تناضل مع نفسها، وتود أن تقضي بشيء، وتريد أن تسأل سؤالاً، دون أن تجد ما يسعفها من كلمات. تستشعر الارتباك والخوف والاضطراب...

وأخيراً قالت دون أن تنظر إلي (أتعرف ماذا؟)

قلت (ماذا؟)

قالت (دعنا ننزلق مرة أخرى!)

وتسلقنا الهضبة الثلجية وجلست نادنكا في الزاحفة الثلجية شاحبة مرتجفة. ومرة أخرى اندفعنا شطر الهوة المخيفة. وزأرت الريح. ومرة أخرى همست والزاحفة تشق طريقها في سرعة مخيفة (إني أحبك يا ناديا!)

وعندما توقفت الزاحفة عن المسير ألقت نادنكا نظرة على الهضبة حيث انزلقنا، ثم حدجتني بنظرة طويلة، تستمع إلي وأنا أتكلم في هدوء وبرود، ويعرب كل جزء من جسمها الصغير، حتى الفراء التي كانت تغطي به يديها، حتى غطاء رأسها، عن منتهى الحيرة، وكأنما قد سطر على وجهها (ماذا يعني ذلك؟ من الذي تفوه بتلك الكلمات؟ أنطق بها هو أو أني تخيلت ذلك فحسب؟)

وأصبح الشك يضايقها ويقصيها عن كل صبر. ولم تعد الفتاة المسكينة تجيب على أسئلتي، بل صمتت في غضب وكأنها على وشك البكاء.

وأخيراً سألتها (أليس من المستحسن أن نعود إلى الدار؟)

فقالت في خفر (حسن. أنا... إني أحب هذه الرياضة. ألا تود أن ننزلق مرة أخرى؟)

إنها تحب (هذه الرياضة)! ومع ذلك، فعندما امتطت الزاحفة، أصبحت - كما كانت في المرتين السابقتين - شاحبة الوجه مرتجفة، تلهث رعباً.

وانحدرنا للمرة الثالثة. ولاحظت أنها تحدق في وجهي وتراقب شفتي. ولكني وضعت منديلي على فمي وسعلت. وعندما بلغنا منتصف الهضبة، نجحت في التفوه قائلاً (إني أحبك يا ناديا!)

وظل السر غامضاً! كانت نادنكا صامتة، تنعم النظر في.. لا شيء.. وأوصلتها إلى دارها. كانت تسير الهويني، وتحاول أن تقصر من خطواتها، إلى أن تتحقق من أني تفوهت بهذه الكلمات. ولاحظت كيف كانت روحها تتعذب، وأي مجهود كانت تقوم به وهي تحدث نفسها قائلة (لا يمكن أن تكون الريح قد تفوهت بهذه الكلمة! إني لا أود أن تكون هي السبب!)

وفي صباح اليوم التالي تسلمت رقعة منها تقول فيها (إذا كنت تود التريض اليوم، فاحضر إلي).

ومنذ ذلك الوقت أخذت أذهب يومياً للانزلاق مع نادنكا، وكلما نزلنا بالزاحفة أهمس قائلاً (إني أحبك يا ناديا)

وسرعان ما اعتادت نادنكا هذه العبارة كما يعتاد المرء الخمر والمخدر، وأصبحت لا تستطيع العيش بدونها. وفي الحق، كان الانزلاق من التل الثلجي يرعبها دائماً بيد أن

الإحساس المخيف والشعور بالخطر قد ولدا لها سحراً غريباً من كلمات الحب - كلمات كانت لا تزال لغزاً يعذب روحها. وكنا - أنا والريح - لا زلنا موضع شكها.. فقد كانت تجهل من منا الذي يغازلها. بيد أنه كان يبدو الآن أنها لم تعد تأبه بذلك أو تهتم. فشارب الخمر لا يعبأ من أي دن يستسقى ما دام أن ما يحتسيه يثمله.

ولقد حدث ظهر يوم أن ذهبت وحيداً إلى أرض الانزلاق واختلطت بالموجودين، فشاهدت نادنكا تصعد الهضبة وتنظر باحثة عني.. وكان يبدو عليها الخوف من الذهاب وحدها - أوه أي خوف! لقد كانت ناصعة البياض كالثلج، ترتجف وكأنها في طريقها إلى المقصلة. بيد أنها واصلت التسلق في عزم دون أن تلتفت خلفها. وكان من الجلي أنها صممت أن تتبين وحدها فيما إذا كانت ستستمع إلى تلك الكلمات العجيبة في أثناء غيابي.

وشاهدتها شاحبة الوجه منفرجة الشفتين، تمتطي الزاحفة وتغمض عينيها، ثم تندفع بها وكأنها تودع الأرض إلى الأبد.

ولست أدري هل سمعت نادنكا تلك الكلمات. كل

ما أدريه أني شاهدتها تنهض من الزاحفة وقد بدت متخاذلة منهوكة. ولم يبد علي محياها ما ينبئ: أكانت قد سمعت شيئاً أو لم تسمع. فقد كان خوفها وهي تنحدر قد جردها من حاسة السمع أو تمييز الأصوات. فلم تؤد بها محاولتها الجبارة إلى حل ذلك اللغز اللطيف.. ولم تحاول مرة أخرى.

ثم أقبل شهر مارس... وكانت أشعة شمس الربيع أكثر حناناً وشفقة.. وتحولت هضبتنا الثلجية إلى لون قاتم، وفقدت بهاءها، وأخيراً ذاب الثلج وهجرنا الانزلاق: ولم يعد هناك ثمة موضع تستطيع فيه المسكينة نادنكا أن تستمع إلى تلك الكلمات وفي الحق، لا يوجد هناك من يتفوه بها الآن، فالريح قد ولت، وكنت أن الآخر على أهبة الرحيل قاصداً بطرسبرج لأقيم فيه مدة طويلة بل لعلها تكون إقامة مستمرة.

وحدث قبل رحيلي بيومين أن كنت جالساً يغمرني الظلام في الحديقة الصغيرة التي يفصل بينها وبين فناء نادنكا حاجز مرتفع... كان الجو لا يزال بارداً، ولم يعتد هناك جليد. وبدت الأشجار وكأنما قد فارقتها الحياة.

بيد أن رائحة الربيع كانت تضوع في كل مكان، والغربان تنعب في صوت جهوري أثناء استقرارها في عشها. وذهبت إلى الحاجز، ووقفت مدة طويلة أتبصص خلال فرجة بالحاجز. وفجأة شعرت بالوحشة تنتابني. وبدافع يدفعني إلى العدول عن الرحيل.

ثم شاهدت نادنكا تقبل نحو الطنف، وتحدج السماء بنظرة حزينة والهة. كان النسيم يهب على وجهها الشاحب فيذكرها بالريح التي كانت تزأر في وجهينا فوق الهضبة الثلجية عندما كانت تستمع إلى تلك الكلمات الثلاث. وكسا وجهها حزن بالغ وانحدرت الدموع على خدها، ومدت الطفلة المسكينة ذراعها كما لو أنها تتوسل إلى النسيم أن يأتي بتلك الكلمات وفي هذه اللحظة همست قائلاً (إني أحبك يا ناديا!)

يا لرحمة الله! أي تغير ذلك الذي طرأ على نادنكا! لقد ندت عنها صرخة، ثم ابتسمت ابتسامة أشرقت على وجهها، وبدت تغمرها البهجة والسعادة والجمال. وجعلت تستقبل النسيم بذراعيها وذهبت أحزم أمتعتي...

كان ذلك منذ أمد بعيد. أما الآن فقد تزوجت نادنكا..

تزوجها سكرتير أحد النبلاء ولها الآن أولاد ثلاثة..

ومع ذلك فإن ذكرى تلك الأيام التي كانت تذهب معي فيها للانزلاق، فتستمع إلى الريح تهمس إليها (إني أحبك يا ناديا!) هذه الذكرى لم تغب عن بالها مطلقاً، لأنها في عرفها أجمل وأسعد بل أكثر الذكريات تأثيراً في حياتها...

بيد أن، وقد بلغت الآن من الكبر عتيا، لا أستطيع أن أفهم لماذا تفوهت بتلك الكلمات، وماذا كان باعثي على هذه المزحة!؟

الجزائر تقرأ

الدكتور فيكل

ترجمة: أزاد نوري محمود

خرجت (واندا) الحسناء من المستشفى وهي فقيرة معدمة... ماذا تفعل! وكل ما عندها من حطام الدنيا خاتم ذهبي ذو ماسة براقة، وقد اضطرت لشدة احتياجها للمال أن تبيعه بروبل واحد... ولكن روبلا واحدا لا يكفيها لشراء ما تهفو إليه نفسها.

إنها تحتاج إلى ملابس جديدة لتبدو فيها أجمل مما هي الآن، وقبعة بيضاء تزهو بها بين الفتيات، وهذه الأحذية البالية التي أكل عليها الدهر وشرب تبعث الاشمئزاز إلى نفسها... ولكن ماذا تفعل؟

وكانت تشعر بخجل واضطراب كلما رأت العيون تحدق فيها وفي ملابسها الرثة وسحنتها الزرية. والغريب أنها تتوهم أن الحيوانات إذا ما رأتها تتقزز من منظرها

وتدمدم غاضبة. وكثيرا ما انفردت بنفسها تناجيها:

– آه. أين ذلك الذي ينتشلني من هذه الوحدة، وينقذني من شقائي... أخشى ألا أجد أحدا.

ثم فكرت في الذهاب إلى (تيفولي)... وهناك كانت تأمل أن تلتقي بضالتها المنشودة. ولكن، أبهذه الملابس القذرة المهلهلة تذهب إلى تيفولي؟ هل تقدم على ذلك؟

وأطلقت لأفكارها العنان: إلى أين أستطيع الالتجاء؟ ولا وزر لي في تيفولي... أإلى (ميشيل)؟ لا، لقد تزوج منذ أيام، أم إلى الهرم الساذج (أوسيب)، وأخشى أن يكون منهمكا في أعماله.

ثم هبت بغتة عندما جال بخاطرها اسم (فيكل) طبيب الأسنان في تيفولي، وتذكرت أنها زارته قبل بضعة أشهر عندما وهبها بعض الأساور الجميلة. وداعبها في تلك الليلة حتى أغاظها فلم تتمالك أن أفرغت قدحا من الشراب على رأسه. إنه طيب القلب مرح. فلابد يعطيها شيئا إذا زارته اليوم.

وهكذا جدت (واندا) السير في طريقها إلى منزل فيكل

وقد سرت فيها انتعاشة فياضة وانبعث منها حمية ونشاط.. وكانت تتمتم بخفوت:

- إذا كان في المنزل ولم يعطني شيئا فسأجدع أنفه!! وسأحاول إغراءه بشتى الوسائل علني أحصل منه على 20 روبلا.

لكنها أنكرت هذه الفكرة وحاولت إبعادها من رأسها؛ وانتابتها قشعريرة وأخذت تترنح في سيرها وشعرت بارتباك وخوف. .

وعندما اقتربت من منزل الطبيب ترددت في طرق بابه.. وتسمرت في مكانها لحظات واجمة تفكر:

- ربما يكون قد نسيني... ثم هذه الملابس الرثة... هذا المنظر الذري.. رباه!

وواتتها شجاعة حينما تقدمت غير هيابة وطرقت الباب بقوة... وصاحت: - هل الطبيب هنا؟

وبرزت الخادمة... وخطت نحوها ثم قادتها إلى غرفة الانتظار دون أن تنبس... وغاصت واندا فوق المقعد الوثير سارحة الفكر شاردة اللب... وأبصرت نفسها في

مرآة مقابلة.. لقد كانت صورة واضحة للبؤس والشقاء والتشرد.

ثم خاطبتها الخادمة بعد هنيهة:

– تفضلي بالجلوس هنا... سيحضر الطبيب بعد دقائق وكانت واندا تفكر فلم تفقه من كلام الخادمة شيئا... وساءلت نفسها:

لم هذا التهيب؟ سأصارحه بالقول وأقترض ما أطلب من مال... ولا عيب في ذلك! وسيتذكرني حالما يراني... ولكن هذه الخادمة السمجة، مالها جمدت في مكانها لا تبرحه؟ لن أصعد إلى غرفته إن بقيت في مكانها.

وفجأة دخل (الدكتور فيكل) بقامته الفارعة ووجهه المتجهم وعينيه اللتين ينبعث منهما وميض الاعتزاز والكبرياء، تدل سحنته العابسة على أنه متشبث برأيه يصعب إقناعه. ودهشت واندا لتجهمه وعبوسه وقد عهدت فيه المرح والانشراح. وفي تلك الليلة التي زارته في منزله داعبها وهو طلق الأسارير ضحوك. ما باله تغير هكذا؟ وكأنه ببروده وتكلفه الابتسام موظف رسمي في ديوانه...

واقترب من واندا وقبل أن يتفرس فيها جيداً سألها بهدوء: – ماذا بوسعي أن أفعله لك؟ ووجف قلبها عندما خاطبها الطبيب بلهجة من لا يعلم عنها شيئا... وأخذت تحدق في تلك الخادمة اللعينة بنظرات تتلظى وغضب مكتوم، واصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة عندما خاطبها ثانية: – هل أستطيع أن أقوم بشيء؟

وأجابته على الفور بصوت متهدج واهن وهي تصر على نواجذها:

– أسناني... أسناني تؤلمني قليلا يا دكتور...

– ها؟ صحيح؟ وتذكرت واندا سنا لها كانت تؤلمها أحيانا:

– في الفك الأسفل، نحو اليمين... حسنا افتحي فاك جيدا...

وزوى فيكل ما بين حاجبيه وبدت عليه صرامة قاسية وتنهد تنهيدة عميقة، ثم شمر عن ساعديه ومرر أصابعه على أسنان الفتاة بهدوء، ثم أدخل في فمها آلة قاطعة:

– هل هذه السن تؤلمك؟ نعم. .

واستسلمت بين يديه بهمود وتراخ وشرعت تفكر.

- إذا عرفته بنفسي... فلابد أنه يتذكرني جيدا، ولكن هذه الشيطانة لا تزال جامدة هناك كالصنم.

وشعرت بألم حاد حينما اقتلع سنها بقوة، وندت عنها صرخة مكتومة وحاولت أن تمسك يديه... وصاح فيها:

- ماذا تفعلين؟ إن سنك قد فسدت ولا تصلح لك البتة... وعليك ألا تهملي شأن أسنانك منذ اليوم يا صغيرتي...

قال هذا واستوى واقفاً على قيد خطوات منها وكأنه ينتظر خروجها... بعد أن أنهى عمله... وهبت الفتاة ناهضة وتوجهت نحو الباب بخطى مضطربة والتفتت نحو الطبيب وقالت وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة متكلفة:

- إلى اللقاء يا دكتور...

وأمسك فيكل زمام ضحكة كانت على وشك الانطلاق ثم أجابها بتهكم مرير:

- إلى أين؟ لقد نسيت الأجر!

واصفر وجه (واندا) ثم اكتسى بحمرة الخجل، لكنها تمالكت نفسها:

أوه.... المعذرة، لقد نسيت ذلك؛ عفواَ.

وازداد ارتباكها وهي تتلقى نظراته النفاذة، وسرعان ما أخرجت الروبل الوحيد الذي تملكه وألقته بين يدي الدكتور فيكل وهي ترتعش...

ومرقت من الغرفة ماضية نحو الشارع عجلى وهي تشعر بخجل لم تشعر بمثله في حياتها. وطفقت تطرق الشوارع القفراء بحذاءيها الباليين وهي ساهمة شاردة، ولعلها كانت تحلم بالملابس الجديدة والقبعة البيضاء ذات الشرائط الوردية وآمالها الموءودة... من يدري.

إنها لم تعد بحاجة إلى قبعة واسعة أو معطف أنيق، وإنما أخذت تجوب الطرقات والدم ينزف من فمها، وهي تفكر في حياتها الكريهة، حياتها المؤلمة، والإهانات التي عانتها والتي سوف تعانيها في الغد، وفي الأسبوع القادم، بل طول عمرها حتى نهاية أجلها

(آه! كم هذا مؤلم! رباه كم هذا مخيف!)

وعلى كل حال ففي اليوم التالي، عادت فاندا الساحرة إلى ملهى (رينيسانس) لترقص هناك، وكانت ترتدي قبعة

حمراء واسعة، ومعطفاً أنيقاً، وحذاء ذا لون فضي لامع.
وقد صحبها للعشاء تاجر شاب جاء أخيراً من قازان.

الجزائر تقرأ

بين المقابر

ترجمة: حسين أحمد أمين

(الريح تعصف، والظلام يزحف علينا.. أليس من الأفضل أن نعود؟)

كانت العاصفة تنساب بين الأشجار الطويلة القديمة عابثة بأوراقها الصفراء المتهالكة، وكان البرد يتساقط بغزارة على جماعتنا.. فإذا بواحد منا ينزلق على الأرض الموحلة فيمسك بصليب كبير يمنعه من السقوط. .

وبدأ الرجل يقرأ ما كتب على الصليب: (أيجور جريا سنورا كوف.. فارس ومستشار خاص.. أنني أعرف هذا الرجل لقد كان يحب زوجته.. ولم يقرأ في حياته كتابا واحدا وكان حسن الهضم وحياته جديرة بأن تعاش.. إنه لم يكن في حاجة إلى أن يموت.. غير أنه - ويا للأسف - مات ضحية لعبقريته وحبه للملاحظة والمراقبة، فبينما

كان ينصت من ثقب الباب ذات مرة إذا برأسه يصطدم صدمة عنيفة مات بسببها.. فتحت هذا الصليب يرقد رجل كان يكره الشعر منذ أن كان في المهد. .

أرى شخصا قادما نحونا. .)

وتقدم منا رجل حليق الوجه في معطف قديم وتحت إبطه زجاجة من الفودكا وفى جيبه ربطة من السجق.

وسألنا في صوت أجش (أين قبر موشكين، الممثل؟)

وقدناه إلى القبر وكان موشكين قد مات منذ عامين.. وسألناه: هل أنت موظف حكومي؟

- (كلا إنني ممثل وإنه لمن الصعب في أيامنا هذه أن نميز الممثل من الموظف الحكومي.. هذا شيء غريب وهو بلا شك لا يشرف الموظفين..) كان قبر موشكين مختلفا عن سائر القبور وكانت الأعشاب تغطيه وعلى سطحه صليب صغير رخيص الثمن قد أتلفه الثلج وقرأنا على الصليب: الصديق المنسي.. موشكين.. وكانت الكتابة غير واضحة لتقادم الزمن عليها.

وتمتم الرجل وهو ينحني على الأرض فتلمس ركبتاه

الطين المبلل: (لقد جمع الممثلون والصحفيون مالا لكي يقيموا له نصبا تذكاريا.. فإذا بهم بعد ذلك يبتلعونه).

(ماذا تعنى بقولك بابتلعوه؟)

(أعنى أنهم جمعوا المال لإقامة النصب ثم دسوا المال في جيوبهم. إنني لا أقول ذلك لائما لهم بل مقررا لحقيقة واقعة.. والآن سأشرب نخب صحتكم ونخب ذكراه الخالدة..)

(إن الصحة لن تأتينا بشربك نخبها... والذكرى الخالدة أمر محزن.. لتكن الذكرى مؤقتة دائما فهذا خير للبشر..)

(هذا حق.. لقد كان موشكين رجلا شهيرا.. وقد حمل الناس خلف نعشه عشرات من الأكاليل.. ومع ذلك فقد طواه النسيان في مدى عامين.. لقد نسيه من أحبوه.. أما من أساء إليهم فما زالوا يذكرونه، إنني لن أنساه ما حييت.. أبدا، أبدا، لأنني ما تلقيت منه سوى الإساءة.. أنني لا أحبه..)

(كيف أساء إليك؟)

تنهد الممثل وقد بدت على وجهه المرارة والألم: (إساءة

كبرى.. لقد كان الرجل - طيب الله ثراه - وغدا لصا فبالنظر إليه والاستماع له أصبحت ممثلا.. وبفنه أغواني فتركت بيتي إلى الأبد وقد غرني المجد الفني.. وعدني بالكثير ولم يمنحني سوى الحسرة والدموع.. هكذا المصير الكئيب الذي ينتظر الممثل.. لقد فقدت كل شيء، الشباب والعاطفة وشبهي بالآلهة وليس الآن في جيبي مليم واحد. وحذائي بال وملابسي ممزقة.. لقد سلبني الإيمان.. هذا اللص.. ومنحني التفكير الحر والحماقة دون أن يكون لدى أية موهبة.. إن الجو أيها السادة فهلا شاركتموني في الشراب؟ إن في الزجاجة ما يكفينا جميعا.. فلنشرب نخب رقود روحه في سلام، إنني لا أحبه.. إنه الآن ميت.. ومع ذلك فلم يكن لي غيره في هذه الحياة.. وكان لي كأحد أصابعي. هذه هي آخر مرة أراه فيها فالأطباء يقولون إنى سأموت قريبا من كثرة الشرب.. وقد أتيت هنا لأودعه وأقرئه السلام فالعفو عن أعدائنا واجب علينا.

وتركنا الممثل ليتحدث إلى موشكين وسرنا وفي الجو رذاذ منعش... وعندما بلغنا الطريق العام إذ بجنازة تمر بنا وقد حمل النعش أربعة أشخاص يلبسون أحزمة

بيضاء وأحذية قذرة. .

وكانوا يسرعون في الظلام وهم يتعثرون في مشيتهم...

(لقد مكثنا هنا ساعتين فقط أدخلوا خلالهما ثلاث جثث إلى المقبرة. .

الجزائر تقرأ

الخطيب...

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

... في صبيحة يوم مشرق كان (كيريل ايفانفتش بيلولوف) كاتب الجامعة على وشك أن يدفن، وهو رجل مات متأثراً بالآفتين الشائعتين في بلادنا: زوجة سيئة الخلف، وإدمان للخمر.

وبينما كان موكب الجنازة يجتاز الطريق إلى المقبرة قفز أحد رفقاء المرحوم ويدعى (بيلافسكي) إلى عربة، وراح يركض بها منقبا عن (جرجوري بتروفتش زبوكين)، وهو رجل - مع حداثته - يتمتع بهيبة ومحبة من معارفه، ويحيط بقسط وافر من العلم - كمعظم قرائي - وقد خلع الله عليه موهبة نادرة في ارتجال الأحاديث التي ينطلق لسانه بها في الأعراس والأعياد والجنازات، وفي قدرته أن يتحدث كيفما وحيثما يشاء... في نومه، في خواء

معدته، عندما ينتشي لكثرة ما نهل من الخمر، عندما تعتريه الحمى فتسيل الألفاظ من فمه في سلاسة ولطف كما تنساب المياه في الجداول، ويعج قاموسه الخطابي بكلمات لا تدانيها (صراصير) المطاعم في الغزارة والوفرة. أما أسلوبه ففصيح بليغ يفيض بالإطناب والإسهاب، ولذا يلجأ القوم - في بعض أعراس التجار - إلى الاستعانة بالشرطة لإيقاف ذلك السيل المتدفق...

وابتدره بيلافسكي حينما عثر عليه في داره قائلا: (لقد أتيت في طلبك - أيها العجوز - هي ارتد قبعتك وسترتك على عجل واصحبني... فقد مات أحد رفقائنا ونحن على وشك أن نشيعه إلى الآخرة، ولذا وجب عليك أن تودعه بكلمة من كلماتك الرائعة فأنت أملنا الوحيد، ولولا أن ذلك الفقيد له مقام في المجتمع ويستحق ما يقال في تأبينه لما أتعبناك وأزعجناك، ولكنك تعلم إنه كاتب الجامعة وناموسها والدعامة الراسخة التي كانت تعتمد عليها الإدارة، فينبغي أن نشيعه ولو بحديث لائق...) فقال زبوكين بغير اكتراث: (هه... كاتب الجامعة! أتعني ذلك الرجل السكير؟!)

- (نعم. سيكون ثمة فطائر وغذاء. وستنال أجرة العربة... هيا، عجل يا عزيزي، يكفيك أن تلقى ببعض الألفاظ الحزينة عند القبر كما كان يفعل سيكرو العظيم... آه كم ستحوز من الشكر والثناء!)

فوافق (زبوكين على الفور وراح يعبث بغدائر شعره وجعل على سحنته مسحة كآبة وحزن، وانطلق في الطريق بصحبة (بيلافسكي)، وقال وهو يهم بركوب العربة: (إني أعلم من هو كاتبكم هذا... رجل شرير خبيث، وحش لم أصادف نظيره في حياتي... فليكن الله في عونه).

- (آه... (جريشيا) هيا معنا فليس من العدل أن نسيء إلى رجل ودع الحياة).

- (لا مجال للشك في ذلك: (فما يذكر للميت سوى حسناته) ولو كان شريراً. .).

وأدرك الرفاق الثلاثة موكب الجنازة، وراحوا يسيرون معه. أما النعش فكان يتقدم وئيداً وعلى مهل حتى أنهم استطاعوا - قبل وصولهم إلى المقبرة - أن ينسلوا ثلاث مرات إلى حانة خمر وينهلوا بعض الأقداح (نخب) حياة الراحل (الكريم).

وفي المقبرة راح الجميع يصلون إلى جانب اللحد... أما حماته وزوجته وأختها فأخذن يذرفن الدمع - مراعاة للتقاليد والعادات - وعندما واروا النعش في التراب صرّحت الزوجة في لوعة وأسى (دعوني أرحل معه) ولكنها لم تصحب زوجها إلى القبر فقد تذكرت ما ستنال من معاش الفقيد...

ولبث (زبوكين) حتى خيم الصمت على الجميع... فخطا إلى الأمام... وراح يقلب طرفه في الحاضرين... وبدأ يقول:

(أأصدق ما تراه مقلتاي، وما تسمعه أذناي؟ لا. إن هذا إلا أضغاث حلم مزعج... هذا القبر، هذا الدمع الذي يتألق على الوجنات... هذه الإناث وهذه الزفرات... أهذا كله وهم؟ لا وا أسفاه ما هذا بحلم... إنما هي الحقيقة وأعيننا لا تخدعنا... لقد قضى نحبه من كان بيننا منذ لحظات، من كان أمام أعيننا كالنحلة الدؤوب... لا يقر قرارها حتى تخرج العسل شهياً لصالح الخلية الاجتماعية... لقد ارتد الآن إلى التراب... إلى التراب الخداع، لقد اختطفته يد المنون القاسية الجبارة في لحظة كان يفيض فيها - مع تقدمه في العمر - بالحياة والقوة والطموح. إنها لعمري

خسارة لا تعوض... ترى من سيخلفه في منصبه، لاشك أن في حوزتنا من هو كفء لها، ولكن (بركوفي اسبتسن) معدوم النظير... لقد كان منصرفاً إلى تأدية واجبه بما وسع مقدوره... لم يضن بقوته بل كان يجهد نفسه في العمل إلى لحظات متأخرة من الليل... كان مثلا عالياً للقلب والطيب والضمير المنزه عن الرشوة، كم كان يحتقر أولئك الذين يأكلون مال الناس بالحق والباطل... لا يفتأون يحللون له الضلال ليحيدوا به عن السبيل السوي... نعم أمام أبصارنا (بروكوفي اسبتسن) الذي يجود براتبه لإخوانه التعساء... كم ستطرق آذاننا تلك الأنات التي تطلقها الأرامل واليتامى بعد أن قضى نحبه من كان يحسن إليهم، من كان منصرفا إلى أعمال البر وإلى تأدية واجبه... من كان عزوفا عن ملذات الحياة وبهجتها... من نبذ سعادة هذا المجتمع... بل نبذ الزواج وجانب النساء إلى آخر أيامه.. من ذلك الذي في قدرته أن يخلفه كرفيق جبلنا على حبه... وكأني أنظر إلى وجهه الحليق تعلوه الرحمة يلتفت إلينا وعلى ثغره ابتسامة مشرقة... وكأني أنصت إلى صوته الحنون الشفيق. أسأل الله أن يشملك برحمته يا بروكوفي أسبتسن فقد كنت

شريفا أمينا مع ما في ذلك من عناء...).

وواصل زبوكين حديثه... بينما شاع الهمس بين المنصتين، لقد أرضى حديثه الجميع. بل وجعل بعض الدموع تنهمر من المآقي... ولكن بدت معظم الفقرات الخطابية غريبة؛ فأولا: لم يدركوا السبب الذي دعا الخطيب من أجله الفقيد باسم (بروكوفي اسبتسن) مع أن اسمه (كيريل ابفنفتسن). ثانيا: أن الجميع يعلم ما كان ينشب بين الراحل وزوجته من الشجار. فمن المؤكد إذن إنه لم يكن أعزب كما نعته (الخطيب). ثالثا: كان ذا لحية كثة حمراء وهذا يتنافى مع قول الخطيب من إنه كان (حليق الوجه). ولهذا أعجز الجميع فهم معظم أقوال الخطيب... وعلا وجوههم الوجوم، وبهتوا وأخذ يتلفت بعضهم إلى البعض، بينما راح فريق منهم يهز أكتافه في ملل وضجر.

واستمر الخطيب في خطبته - وقد اتخذ في رفقته هيئة الحزين. فقال: (بروكوفي اسبتسن... لقد كان وجهك وضاحا مع إنه قبيح... كنت عبوسا مقطب الجبين، ولكن كلنا يدرك أن تحت هذا المظهر الخارجي قلبا يغلب عليه

الشرف والشفقة والحنان...). وفجأة لحظ المستمعون أن الخطيب نفسه بدأ يعتريه شيء من الاستغراب كان يتفرس في جهة معينة من الجمع الغفير. ولم يلبث أن كف عن الحديث وفغر فاه في دهشة... ثم مال على صديقه بيلافسكي وقال وهو يحملق في فزع (هه. لقد رأيته... إنه ما زال على قيد الحياة؟!)

- (من هو الذي لا زال على قيد الحياة؟!)

- (بروكوفي اسبتسن!! ها هو قائم عند حجارة القبر!!)

- (إنه لا زال على قيد الحياة... إنما الذي مات كيريل ايفانفتسن أما بروكوفي اسبتسن فقد كان كاتب الجامعة منذ حين وقد نقل إلى المنطقة الثانية رئيسا للمكتبة...).

- (يا للشيطان الذي أوحى ألي بذلك!)

- (لِمَ وقفت عن الحديث... انطلق عجبا!! إنك مضطرب). والتفت زبوكين إلى القبر، وفي فصاحته المعهودة تابع حديثه. أما بروكوفي اسبتسن كبير الكتبة الكهل ذو الوجه الحليق فقد كان قائما حقا قرب حجارة القبر... كان ينظر إلى الخطيب شزراً... وقد انتابته موجة

من الغضب.

أخذ رفقاء زبوكين يتغامزون عليه في عودتهم (هه... هه... يا لك من غرا! عجبا! أتود أن تدفن رجلا وهو يفيض بالحياة؟) ودنا منه بروكوفي اسبتسن وراح يقول في تذمر: هذا لا يليق أيها الشاب، إن حديثك هذا له قيمته إن كان في رجل قد ودع الحياة، أما إذا كان يمت إلى رجل حي فهو كلام فارغ وتهكم واستهزاء... كم تحدثت طويلا عن روحي وعن نفسي! أيها الأبله! ماذا كنت تقول؟! مثلا عالياً للقلب الطيب والضمير المنزه عن الرشوة.. إنها كلمات تقال للأحياء على سبيل التهكم، ومع ذلك من الذي دعاك إلى التحدث بإطناب عن وجهي؟! قبيح عبوس، ولنفرض إنه كذلك، ما الذي عاد عليك أيها الأبله من وصف محياي على ذلك الملأ... إنها والله إهانة لن أغفرها لك.

قلب موزع

ترجمة: كمال الدين الحجازي

عادت (ناديا زلينينا) وأمها من الملهى بعد أن شهدت إحدى المسرحيات، وعندما دخلت غرفتها خلعت ملابس السهرة وأرخت شعرها وبدأت تكتب رسالة إلى حبيبها: (أحبك.. ولكنك لا تحبني.. أجل لا تحبني) ولما كتبت ذلك ابتسمت طويلاً. كانت ناديا في السادسة عشرة من عمرها، وكانت فتاة غريرة لم يطرق الحب قلبها، إلا أنها كانت تعلم أن (جورني) الضابط و(جروندف) الطالب كانا يحبانها. ولكنها بعد مشاهدتها المسرحية في الملهى بدأ الشك يتسرب إلى قلبها في حبهما لها، وكم تمنت لو كانا يكرهانها حتى تصبح سعيدة. فما أجمل أن يحب المرء شخصاً ويتهالك في حبه، بينما الآخر لا يبادله ذلك الحب! إن بطل المسرحية (أونيجن) كان محقاً عندما كان يهزأ بالحب! بينما كانت (تاتيانا) تؤمن به. وقالت ناديا

في نفسها: ترى لو أحب كل منهما الآخر حباً شديداً هل يكونان سعيدين؟ لا بل أعتقد أن السآمة ستنتابهما لا محالة! ثم واصلت ناديا الكتابة إلى جورني: (لا.. لا تزعم أنك تحبني.. إنني لا أصدقك، حقاً إنك شجاع جداً، ومثقف واسع الثقافة وأنك تنظر إلى المستقبل متفائلاً، إلا أنني فتاة ساذجة لا أصلح لك، وأنت تعتقد في قرارة نفسك أنك لا تستطيع العيش معي. إنني لا أنكر أنك تعلقت بي وأحببتني واعتقدت أنك وجدت فيَّ فتاة أحلامك... إلا أنك مخطئ في هذا الاعتقاد، وكنت تسائل نفسك: لماذا أحببت هذه الفتاة؟! وإنني أعتقد أن طيبة نفسك لا تعترف بذلك وما إن أتمت كلماتها هذه حتى بكت بكاءً طويلاً! ولما خف بكاؤها واصلت الكتابة (كم تمنيت أن أرتدي لباس الراهبات وأذهب إلى الدير لولا أنني أخشى أن يكون ذلك عبئاً ثقيلاً على أمي.. وعندها تستطيع أن تحب فتاة غيري.. آه كم أتمنى الموت!!) وكانت تتساقط دموعها على الطاولة وتشكل أقواساً متقطعة. ثم كفت عن الكتابة وأسندت رأسها على الكرسي تفكر! كان جورني جميل الخلق والُخلق، وما أبرعه في الموسيقى! وكم كنت أطرب لصوته العاطفي الحنون! كان يخفي

عني حبه للموسيقى، ولكنني عرفت ولعه بها، ولو لم يكن ضابطاً لكان موسيقاراً عظيماً! ولما كفت ناديا عن الكتابة تذكرته وهو يناغيها بكلمات الحب والغرام... وفجأة شعرت أن نفسها تكتب إلى حبيبها (جرونسدف) الطالب (إنه طالب ماهر، وكان يسهر معنا بالأمس، وكنا سعيدين حقاً) ثم مدت ذراعيها على المنضدة وأحنت رأسها، فتذكرت أن جرونسدف يحبها وله الحق أن ينال في كتابتها ما هو أهل له مثل جورني. وشعرت أن طيفاً بدأ يداعب خيالها فأحست بسرور لم تعهده قبلاً وانثالت عليها الذكريات بشدة، وقد سرى هذا السرور من صدرها إلى يديها ورجليها، فكأن نسيماً عليلاً داعبها وحرك شعرها فارتجفت ذراعاها فضحكت ضحكة هادئة، فاهتزت المنضدة والمصباح كأنهما يشاركانها الفرح!! وكانت الدموع تتساقط على الرسالة... ثم بدأت الذكريات تتوالى عليها كرة أخرى عن الطالب وحبه لها، فتمددت هذه الذكريات في رأسها وتغلبت عليها وأصبحت موزعة بين جميع الأشياء، فبينما هي تفكر في أمها إذ بها تفكر في الشارع وفي قلمها وفي البيانو، وكانت سعيدة في تفكيرها ووجدت أن كل ما يخطر على بالها حسن وجميل! وكانت

تشعر أن السعادة تناديها قائلة: (ليس هذا كل شئ.. بل ستشعرين بسعادة أكثر في الغد، سيهل الربيع والصيف وسيذهب الحبيبان معك إلى (جوربكي) بصحبة أمك، وسيزورك جورني في عطلته، ويسير معك في الحديقة فينتعش حبكما سيزورك جرونسدف وستلعبان معاً لعبة الكركت ويقص عليك قصصه الحلوة اللذيذة)...

وعندما وجدت نفسها تسير في الحديقة وتخيلت جورني يسير معها في ظلمة الليل، ترعاهما النجوم وتحجبهما الأشجار عن أعين العذال! فضحكت لهذه التخيلات الجميلة وتمنت لو تحققت في الحال. ثم عادت إلى فراشها ولم تدر كيف توزع سرورها وفرحها بالقسطاس فقد تغلبت عليها! فنظرت إلى تمثال المسيح المعلق في صدر غرفتها وقالت: (يا إلهي... يا إلهي، كم أقاسي!)...

الجزائر تقرأ

طبيعة مبهمة!

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

مالت السيدة الوضيئة جانباً، وهي جالسة على مقعد وثير مغطى بالمخمل الأحمر في عربة فاخرة من عربات السكة الحديدية! وقد ضمت أناملها البضة الرقيقة مروحة مريشة أنيقة الصنع رائعة الوشى... راحت تهتز وتتراقص عن يمين تارة وعن شمال!

وطفق المنظار المعلق على أنفها الدقيق الفاتن لا يقر له قرار، بينما بدت (الحلية الماسية) مشرقة تتألق على جيدها كزورق يسبح في ماء المحيط!

وجلس في مقعد قبالتها الناموس الإقليمي للجمعيات الخاصة وهو شاب حديث المنبت في الأدب، يخرج على القوم بين حين وحين بقصص طوال - من النسق الرفيع كما يحلو له أن يسميها - ينشرها في جريدة الإقليم. .

راح يحملق في صفحة وجهها، ويحدق عن قصد لا يحول.. بعين العارف الخبير! إنه يتأمل ويدرس.. ويتصيد ظلالا عابرة وأطيافاً حائرة بين ثنايا هذه الطبيعة المبهمة، والغموض يكتنفها! إنه يحاول أن يفهمها ويسبر غورها... فروحها ونفسها... كلتاهما مبسوطة بينه الجلاء أمام ناظريه...

ثم لم يلبث أن قال لها، وهو يلثم رسغها البض على مقربة من السوار!

(أه... لقد أدركت! أدركت إلى أبعد مدى ما يدور بين جوانحك.. إن روحك ذات الحس المرهف والأمل الطامح.. تسعى في سبيل الخلاص من ربقة الحيرة الطاغية، والفكاك من أسر القاتل! إنه لصراع عنيف (نضال مخيف! ولكن تمالكي روعك وأمسكي عليك صوابك وتذرعي بالصبر فلسوف يأتيك الفوز من حيث لا تعلمين... أجل!)

فقالت السيدة الأنيقة في صوت خفيض مضطرب النبرات، وقد علت وجهها بسمة حزينة: (أكتب عني يا (فلدمار)...

إن حياتي عامرة مختلفة ألوانها! زاخرة بالمال والذهب..

بيد أني - على الرغم من ذاك - لا أذوق للسعادة طعماً، ولا أجد الهناء إلا حلماً! ما أنا إلا نفس معذبة وروح شقية في صفحة من صفحات (دوستويفسكي)!

(عرّف العالم بهذه النفس يا (فلدمار)، وأذع خبر هذه الروح ذات الحظ العاثر والطالع النحس! لقد أوشكت أن تبلغ من قلبي مبلغاً عظيماً. ولعلك لا تجدني بعد ساعة في هذا القطار)

- خبيرني! ناشدتك الله... خبريني!)

- (أعرني مسمعيك... لقد كان أبي كاتباً في (الخدمة) قتر عليه رزقه.. وكان ذا قلب تعمره الطيبة ويفيض عطفاً وحنواً وذا عقل ليس بالعاطل من الفطنة والمعرفة.. بيد أن الزمام أفلت من بناته وهو في غاية العمر، وتنكب جادة الرشد وهو على شفا القبر! فأدمن الخمر وأغرق في الميسر.. وامتدت يده إلى الرشوة فلوثها دنسها! وأني لا أضمر له لوماً.. بل طالما رثيت له وأشفقت عليه!

وأمي! - ولكن ما الذي يدعوني إلى أن أمضي في هذا! المتربة والعوز.. والنضال المرير في سبيل لقمة تسد الرمق! والمشاعر التي تكتنف المرء لإحساسه بتفاهة شأنه

وحقارة أمره في موكب الحياة الصاخب! أوه! دعني.. لا تدفعني إلى أن أبعث هذه الذكريات وأثير تلك الشجون... لقد جاهدت في أن أشق سبيلي وأنت أدرى بحال التعليم في تلك المعاهد التي تأوي من يطلب العلم فيها، وما يجتاح الشباب - وهو يتفتح - من حماقات ونوات.. ثم هذه الخفقات الأولى بين الضلوع... للحب الوليد! إن ذلك لرهيب مهيب! الحيرة والإضطراب، وتلك الآلام المبرحة التي تحز في نفسي حزاً عند من يفقد يقينه بالحياة!

أوه إنك مؤلف! وتدرك ما يفعم قلوبنا.. معشر النساء! لسوف تفهم كل شئ! كم كنت تعسة شقية!: أتلمس السعادة وأي سعادة! وأتوق إلى أن أطلق لروحي عنان الحرية! أجل فها هنا... تكمن سعادتي وتستكن راحتي!)

فغمغم (المؤلف).. وهو ينهال على رسغها العاجي فيلثمه مرة أخرى عند السوار! (يا لك من مخلوق رائع! إني لا أقبلك أنت... بل أحي فيك الإنسانة المعذبة.. ألا تذكرين (رسكولنكوف) وبقبلته الخالدة!)

- (أوه... يا فلدمار.. إني لتواقة إلى المجد، متشوقة إلى الرفعة ظامئة إلى الشهرة! إني لأحن إلى أمر غير هذه

الأمور التي لا تفتأ تدور على وتيرة واحدة... أمر غريب عجيب لا تألفه النساء!

وبعد هذا! ألفت إلى المقادير قائداً عجوزاً عظيم الثراء وافر النعمة! هلا فهمتني يا فلدمار، لقد كانت تضحية بالنفس وأي تضحية! وإنكاراً للذات وأي إنكار! ينبغي أن تعلم هذا!

لم يكن بوسعي أمر غيره فقد علقت (الأسرة) آمالها وعقدت أمانيها على أن أقبله. كم عانيت منه فلشد ما أثار سخطي وأهاج بغضي فقد كان عناقه شيئاً كريهاً وحديثه تافه النفس.

وكنت - على الرغم مني - أظهر له اللطف وأتكلف الرقة؛ إنها لحظات مريعة. بيد أن الرجاء كان يراود نفسي والأمل يداعبها فأمنّيها اليوم الذي يوارى الرجل فيه التراب ويضمه اللحد حينئذ سوف يخلو سبيلي، فأحيا كما يروق لي وأهب نفسي إلى الإنسان الذي أعبده سعيدة راضية لا مجال للريب في أنه ثمة إنسان يقع من النفس موقع الشغف يا فلدمار).

وراحت السيدة الوضيئة تحرك مروحتها في شئ من

العنف وبدا وجهها وكأنما اتخذت سماته الأهبة للبكاء، ومضت في حديثها مستأنفة (وأخيراً خمدت أنفاس الرجل وذاق منيته فحلق لي نصيباً ليس باليسير. لقد صرت طليقة كالطائر الذي يحوم في جو السماء فيقع على ما يهوى إنها الساعة التي حانت فيها سعادتي أليس كذلك يا فلدمار؟ لقد أقبلت السعادة تطرق نافذتي ولم يكن علي إلا أدعها تدخل.

ولكن، إسمع يا فلدمار ففي هذه اللحظة التي كنت فيها أسعى للرجل الذي أهيم به حباً لأهبه نفسي وأصبح شريكة حياته، وساعد عون له وناصره لشوكته فأسعد به وأستريح اليه.

في هذه اللحظة تبددت الأوهام وطارت الأحلام شعاعاً. وإن حياتنا حقيرة تمجها النفس، تافهة لا معنى لها. إني بائسة أشد البؤس، يائسة أبلغ اليأس!

لقد كانت ثمة عقبة أخرى في سبيلي فلما انثنيت أتلمس السعادة إذا بها نائية عني بعيدة كل البعد... أوه! ما أشد هذا ألما وتبريحاً لو أنك تحس هذا الألم وتستشعر ذاك العذاب).

– (ولكن ما الذي قام في سبيلك ونهض في وجهك هذه المرة؟! بالله خبريني ما هو؟!)

– (قائد عجوز آخر واسع الثراء مثل الذي فر من الموت، وفي الموت وقع).

وانسدلت المروحة (المحطة) على الوجه الوضئ، واعتمد (المؤلف) رأسه الضخم على راحة يده وأغرق في لجة من الفكر وقد لاح في هيئة الفيلسوف الحكيم.

وانطلقت القاطرة تدوي بصفيرها وصليلها بينما اصطبغت سجف النافذة بالحمرة الموردة وقد أشاعتها الشمس الغاربة!

«الجزائر تقرأ»

الراهب

ترجمة: محمود البدوي

كانت الشمس في القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هي اليوم. وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار الكرى، وتشيع في الدنيا البهجة وتحلو الأماني! وتعود الأرض في المساء إلى سكونها ثم تغوص في غياهب الليل. وقد ترى أحياناً سحابة راعدة تلوح، ويقصف الرعد وهو يزمجر، أو تهوى نجمة شاهقة من السماء، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمراً قريبا من الدير. كان هذا كل شيء، ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي.

كان الرهبان يصلون ويعملون: أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن، ويقرض الشعر اللاتيني، ويؤلف

النغم الموسيقى. وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة. فهو يعزف على الأرغن ببراعة، حتى أن معظم الرهبان القدماء الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته. وعندما يتكلم ولو عن الشؤون العامة كالشجر والوحوش الضارية والبحر الخضم، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دمعة تترقرق في عينيه، أو بسمة ترتسم على شفتيه، فيخيّل إليك أن الأنغام التي تتجاوب في الأرغن هي بعينها التي تعتلج في نفسه. وحينما يهيجه غيظ متمكن، أو يأسره فرح شديد، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذه نشوة قوية، ويتسايل الدمع من عينه اللامعة، وتضرج وجهه الحمرة، ويدوي صوته كالرعد. هنا يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهمتذيبها عظمته وأنها تفنى فيه. لقد كانت قوته في هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بانفسهم في البحر لاستبقوا اليه مسرعين.

كانت موسيقاه وصوته وشعره الذي يمدح به الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب. ففي مدة حياتهم الرتيبة

تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملة، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر، ويصبح شدو الطير مملول النغم مرذول الجرس. ولكن سجايا رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحيي والقوة المجددة.

كرت السنون ومازالت الأيام تشابه الأيام، والليالي تحاكي الليالي وما دنا من الدير أحد اللهم إلا ضواري الوحش وجوارح الطير. وكانت أقرب المساكن الإنسانية بعيدة جداً. ولا تصل إليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل.

والذين يجرءون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يجعلون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً، والذين نبذوها وراءهم ظهرياً ونفضوا أيديهم منها جملة. يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون إلى القبر.

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عندما قرع بابهم في ليلة من الليالي رجل برهن لهم على أنه من سكان المدينة: وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للإثم وحبا للحياة. وقبل أن يصلي أو يرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاما ونبيذا.

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة طويلة: خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق، وعند ما أشاروا إليه أن الواجب عليه أن يمسي راهباً أجابهم في ابتسام: (لست لكم بصاحب!)

شرب وأكل ملء بطنه، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائماً وقال:

(إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئا، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم، هل هذه هي الطريقة لخلاص أرواحكم؟ فكروا الآن! بينما أنتم تعيشون في هدوء هنا، تأكلون وتشربون وتحلمون بالخيرات والبركات إذا بإخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم، انظروا ما الذي يحدث في المدينة! بينما بعض الناس يموتون جوعا، إذا بالآخرين لا يعرفون أين يبذرون الذهب، ينغمسون في الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب في العسل، ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس. من الذي يجب عليه انتشالهم مما هم فيه؟ أأنا الذي أروح صريع الكأس من الصباح إلى المساء؟ هل أنعم الله عليكم بالخلاص، ومنَّ عليكم الحب، وحباكم بالقلوب الرحيمة، لتجلسوا هنا بين

هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئا؟!)

ومع أن كلام الرجل السكير كان ينطوي على الجرأة الوقحة فقد أثر تأثيراً غريبا في رئيس الدير فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب (إخواني انه محق. فصحيح أن الحماقة والضعف البشري جرفا الإنسانية التعيسة في تيار الجحود والإثم فأهلكاها وقضيا عليها. وها نحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأن لا عمل لنا ولا واجب علينا. لماذا لا أذهب إليهم فاذكرهم بالمسيح الذي نسوه؟)

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير، ففي اليوم التالي أمسك بعكازه وودع إخوانه، وركب الطريق إلى المدينة، فأمسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه.

ترقبوه شهراً ثم شهرين فما عاد، وأخيرا في نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف فخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالأسئلة، ولكنه بدلا من مشاركتهم في حبورهم بكى بكاء مراً وما نبس ببنت شفة. رأى الرهبان أنه أصبح نحيلاً وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح

وجهه.

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء وسألوه عما يبكيه، فما أجابهم بكلمة وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث في صومعته. لبث فيها خمسة أيام ما شرب فيها شرابا ولا طعم طعاما ولا عزف على الأرغن. ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه في الخروج ليشاركوه في أساه كان جوابه الصمت العميق.

خرج من معتكفه أخيرا وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور الثلاثة التي خلت والدمع ينضح وجهه والألم يأكل قلبه، ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة. غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق، وجاش صدره بالأماني الحلوة والآمال المعسولة. شعر بأنه جندي يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول إلى النصر المحقق. سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد، وسرعان ما وجد نفسه في نهاية الرحلة. على أن عيونه أومضت باللهب، ونفسه جاشت بالغضب، وصوته ارتعش عندما بدأ يحدثهم عن المدينة والإنسانية. ما كان رأى ولا تخيل

قبل اليوم كل ما رآه وأحصاه في قلب المدينة. رأى وفهم لأول مرة في حياته سلطان إبليس وسيادة الجور وضعف القلب الإنساني الخاوي. هنا خمسون أو ستون رجلا جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد. أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط، وينوهون في شجاعة بأشياء جارحة لا يجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن يشير اليها. فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت. يقولون ويفعلون ما يشاءون، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة.

أما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان! وهو أيضا ذكي الرائحة لذيذ الطعم، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب في الشراب ثانية. وهو يجزى على ابتسام بابتسام، ويتهلل غبطة كأنه يعرف أي ضلال جهنمي يختبئ تحت حلاوته.

غلى مرجل غضبه، وبكى أحر البكاء وأشجاه. ثم استطرد يقص عليهم ما رأى: (وقفت امرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين، ويصعب عليكم أن

تتصوروا شيئا أكثر فتنة وسحرا منها، صبى ناصر زاهر، وشعر طويل جثل، وعيون سوداء لامعة، مكتنزة محمرة، ثم سفاهة وجرأة وقحة. هذه البهيمة تبتسم فتفترعن عن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول: (انظروا إني جميلة، ومستهترة....) وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية البديعة المشجرة. على أن جمالها لا تخبئه ملابس، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها.... كأنه الأعشاب الصغيرة وهي تشق لنفسها الطريق في الأرض زمن الربيع. وتشرب المرأة التي لا تستحي النبيذ، وتغني الأغاني، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين....)

لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل، وصراع الثيران، والملاعب، وحوانيت الفنانين، حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا من الصلصال.

كان الرجل في حديثه لِسِناً ملهماً جهوري الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لا تقع عليها العين. والرهبان ذاهلون عن أنفسهم غائبون عن رشدهم وقد أسرتهم كلماته وسحرهم بيانه، فهم يلهثون من فرط

السرور. ولما فرغ من وصف إغواء إبليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن إبليس ثم غادر المكان واختفى وراء بابه.

فلما خرج من صومعته في صباح اليوم التالي لم يجد راهبا واحدا في الدير. فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة!!

الجزائر تقرأ

البغض الأول

ترجمة: عبد اللطيف النشار

جلس جماعة من المصطافين في كوخ بين الحشائش الخضراء وكانت الليلة مقمرة ونافذة الكوخ مفتوحة ينفذ منها ضوء القمر. وكانت روائح النبات تفوح في المكان والأصدقاء يتحدثون أحاديث مختلفة، وتناول الحديث ذكر النساء والحب فقص كل منهم أقاصيص كثيرة حتى تجاوز عدد هذه الأقاصيص المائة قصة.

وكان في ركن من الكوخ ضابط لزم الصمت من أول الليلة وظل يتثاءب؛ فلما جاء دوره صاح:

(ليس في التحدث عن الحب غرابة، فكل النساء قد خلقن للحب، وليس لأحدكم أن يفاخر بالحب؛ فهل منكم من جرب البغض الحق؟ هل عرف أحدكم الكراهية؟)

لم يجبه أحد، واستمر الضابط يقول: (أنا قد جربت هذا

البغض فقد كرهتني فتاة فدرست في شخصي أعراض الكراهية الأولى؛ وإنما قلت الكراهية الأولى كما يقال الحب الأول. ولكن هذه التجربة الغريبة قد حدثت في عهد من العمر لم تكن لدي فيه فكرة واضحة عن الحب والبغض فقد كنت لا أتجاوز الثامنة من العمر) وليس هذا مطلب القصة بل مطلبها فتاة، فأنصتوا:

خرجت من المدرسة في أصيل يوم من الأيام وجلست أمام مكتبي في الغرفة التي أذاكر فيها، وكانت مربيتي - وهي فتاة حديثة عهد بالمدرسة - تطل من النافذة.

نظرت إلي فتبينت على وجهها الارتباك، وسألتني وهي لا تكاد تعني ما تقول: هل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم

قالت: وماذا نتنفس نحن؟

فقلت: ثاني أكسيد الكربون؟ قالت: أصبت، وثاني أكسيد الكربون غاز خانق يوجد في الكهوف وفي بعض المياه، وقد رأيت كهفاً بالقرب من مدينة نابولي يكثر فيه هذا الغاز، ورأيت كلباً ألقي فيه فمات في ساعته.

قالت لي مربيتي بعد هذا الحديث: إن أبي وأمي ليسا بالمنزل، وإن أخي يشكو الصداع وأنه ذهب للطبيب وأن ليس بالمنزل غيري وغيرها، ثم سألتني وهي لا تزال تطل من النافذة على الأشجار وما يليها من الفضاء:

ما هو الأفق؟

فقلت: هو الخط الوهمي الذي عنده تلتقي السماء بالأرض.

وعادت فسألتني وهي لا تزال تنظر إلى الأشجار: وهل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم، ثم رأيت في يدها ورقة مطوية قد شدت عليها أناملها ونظرها يرتد عن الأشجار وقالت: في إيطاليا كهف بالقرب من نابولي يكثر فيه هذا الغاز الخانق، هل تقول: إن الأفق هو الذي تلتقي عنده السماء بالأرض؟

وكانت وهي تقول ذلك كالحالمة، وتجلى اضطرابها الشديد، ثم مشت ذهاباً وإياباً في الغرفة بحالة تدل على القلق وقالت لي: اقرأ درس الرياضة حتى أعود بعد نصف ساعة.

خرجت مربيتي من الغرفة، ورأيتها وهي تمشي في

يمكن الحصول على هذا الكتاب ورقيا
وغيره من كتب الجزائر تقرأ وما تشتهيه
من كتب أخرى عبر متجرنا الإلكتروني
مع توصيل لباب البيت

dzreads.com

الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»

الحديقة بخطوات كخطوات المحموم، وكان وجهها أكثر احمرارا من عهدي به، واضطرابها جلي إلى درجة استلفتت نظري، فقلت في نفسي: إلى أين تذهب يا ترى؟

وطويت الكتاب وقلت: أتبعها وكنت أحسبها ستنتهز غياب أمي فرصة وتسرق بعض الفواكه من أشجار الحديقة. ولكنها لم تفعل بل تجاوزت كوخ البواب وخرجت من المنزل، وتبعتها مختفياً وراء الأشجار حتى وصلت إلى البحيرة. وهنالك... هنالك وجدت أخي الذي قالت إنه مريض وأنه ذاهب إلى الطبيب.

لم يكن أخي عندما شاهدته مريضاً بل وقف عندما رآها وكأن قوة غريبة دفعت كل منهما إلى الآخر فتعانقا وقبلها وقبلته وفهمت من كل حركاتها وإن كنت صغيراً أن هذه أول مرة فعلتْ فيها مثل ذلك.

وكان وراءهما أكمة عالية فغابا خلفها وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بخجل شديد. ولم أر أكثر من ذلك، ولكن لكوني متقدماً في الذكاء عمن كانوا في مثل عمري فقد فكرت في الأمر وقلت لا بد من الاستفادة منه. ثم ابتسمت ابتسامة المنتصر، وذلك لأن في معرفة الأسرار لذة لا

يستهان بها خصوصاً إذا كانت أسرار أخي الذي له نفوذ بالمنزل، ومربيتي التي لها نفوذ عليّ.

لما عادت مربيتي إلى الغرفة كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل وعينيها البراقتين، وكان السر الذي أكتمه يكاد يمزقني فقلت: لقد عرفت! لقد رأيت!

قالت: (ما الذي رأيته، وما الذي عرفته؟)

فقلت: (رأيت أخي يقبلك وأنت تقبلينه عند البحيرة)

عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد في عينيها، وجلست خائرة القوى على المقعد ولم تنطق بحرف، وأعدت جملتي وزدت عليها: (انظري حتى أخبر أمي).

فنظرت إلي باهتمام ورعب؛ ثم لما تبينت أني لن أفعل أمسكت بذراعي وهي في حالة شديدة من اليأس، وقالت بصوت خافت: (هذا لا يليق... أتوسل إليك...! بالله لا تقل شيئاً! إن الشرفاء لا يتجسسون... أتوسل إليك!)

لقد كانت مربيتي المسكينة تخاف من أمي، وهذا سبب من أسباب فزعها، ولكن أهم هذه الأسباب هو فضح حبها الأول. وأنتم بلا ريب تقدرون شعورها في هذه الحال. وفي الصباح عرفت أنها لم تنم طول ليلتها لأني

رأيت حول عينيها هالة زرقاء مسودة، ورأيت في عينيها علامة السهاد. ولما وجدتها وحدها بعد ذلك في غرفتي قلت: (لقد عرفت، لقد رأيت!)

فنظرت إلي ولم تجب، ثم لما رأيت أخي وحده قلت له هذا القول، فلم يكن ليخاف خوف المربية، بل شتمني فخفت أنا... ولم أعد أجرؤ على تكرار كلمتي أمامه. أما المربية فقد أردت الاستفادة من معرفة سرها، فصرت لا أذاكر، وصرت أعبث في غرفتي كما أشاء فلا تشكو إلى أمي ولا تظهر لي الضجر. وحافظت على تلقيني دروسي متى أردت وعلى شرح ما أطلب شرحه، وهي تتغاضى وتلزم الوقار. ولكن مضى أسبوع وضاق صدري بالسر فجلست مرة مع أمي وكانت معنا المربية وأخي فقلت لأمي: (لقد عرفت! لقد رأيت!) فبدا الفزع والرعب على وجه المربية وبدا الغضب على وجه أخي ولكني لم أزد ولم تسألني أمي.

ومن ذلك اليوم صرت أرى نظرات المقت والكراهية الجنونية على عيني المربية وصارت تقرض أسنانها كالذئب كلما رأتني؛ وبدأت أعرف كيف تكون كراهية

الشياطين. وفي يوم من الأيام كانت تلقنني الدرس فسمعتها تقول: (إنني أمقتك؟ ليتك تعرف مقدار كرهي لك أيها الحيوان) ثم زادت على ذلك: (إنني لا أخاطبك ولكني أعيد جملة من رواية.)

كانت بعد ذلك تأتي إلى غرفة نومي وتنظر إلي وأنا بين النوم واليقظة نظرة مقت؛ وصارت الحالة تزداد حتى أمسكتني من ذراعي مرة من المرار وقالت: (إني أكرهك وما تمنيت لإنسان من الشر مثل الذي أتمناه لك وأريد أن تفهم ذلك.)

كان ذلك في الليل، وكان ضياء القمر الشاحب ينير الغرفة، ونظرت إلى عينيها فسررت أولاً، لأن هذا الشيء جديد، ثم خفت فصرخت بصوت عال، ثم عزمت على أن أخبر أمي؛ على أني لو كنت أعرف جوابها لما عزمت هذا العزم الأحمق.

لقد أجابتني: (وما شأنك أنت؟ أنت صغير فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟)

وكانت أمي فاضلة رقيقة الإحساس؛ وكانت تتجنب ما يؤدي إلى الفضيحة فلم تطرد مربيتي في الحال بل

انتظرت مدة كانت تنصرف فيها عن المربية شيئاً فشيئاً ثم أخرجتها بعد مدة من المنزل لسبب آخر انتحلته. وأنا لا أزال أذكر تلك النظرة التي رمتني بها المربية وهي تغادر المنزل.

بعد ذلك بعهد طويل صارت مربيتي زوجة لأخي وهي فلانة التي تعرفونها جميعاً. وتغيرت ملامحي فلم أعد أشبه ذلك الغلام الذي كنته، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال تنظر إليَّ إلى اليوم نظرة بعيدة عن الود، وتعاملني كلما زرت أخي معاملة غير معاملة الأصهار، وما ذلك إلا لأن البغض الأول كالحب الأول ليس من السهل أن يزول.

«الجزائر تقرأ»

عمل شاق...

ترجمة: مصطفى جميل مرسي

كانت ليلة من ليالي شهر مارس، والسحب مدجنة، وقد تكاثر الضباب فطوى الأرض والسماء في مطارفه.. حتى لا يكلف المرء نفسه الخطو خيفة العثر.. وهب الحارس فجأة وقد طرق أذنيه لغط وهسيس لشخص يمضي في المقبرة. وصاح في هلع: من هناك؟ ولكن دون مجيب.. فراح يرجع صيحته قد توجس همساً (من هناك؟!) فأجاب صوت مختلج لرجل هرم. (أنا ذا.. أيها الرفيق.)

- ولكن من أنت؟!

- أنا رجل جوال.

فصاح الحارس في صوت حاول أن يستر به رنة الفزع التي سرت إليه:

– أي شيطان رمى بك إلى هنا؟! أتجول قدميك في المقبرة ليلا؟ أيها الشرير الخبيث!

– أتقول إن هذه مقبرة؟!

– وما في ذاك؟! إنها مقبرة.. ألا تلمح ذلك؟

فتنهد الرجل الهرم قائلا: (آه.. يا للسماء. ما أقدر على إبصار شيء أيها الرفيق.. إن الظلمة لحالكة.. الظلمة.. فما يستطيع الإنسان أن ترى يده وهي أمام وجهه!

– ولكن من أنت؟!

– أما قلت لك.. زائر.. أيها الصديق، رجل جوال.

فنبس الحارس في يقين: (إلى الشيطان.. يالكم من معربدين أيها الجوالون، كل منكم يطل يجرع الخمر، ويأتي إلى هنا يقلق راحتنا ويسبب متاعبنا ليلا.. ولكن.. لقد سمعت أصواتاً تهمس معك فأين أصحابها؟!

– إني بمفردي يا صديقي.. إني وحيد.. آه يا إلهي.

دنا الحارس من العجوز ووقف إزاءه وسأله:

– كيف حضرت إلى هنا؟!

– لقد ضللت سبيلي يا سيدي بينما كنت أروم طاحونة (ميتريافسكي)..

– ويحك.. أهذا طريق طاحونة (ميتريافسكي)؟ أيها الشرير؟ كان ينبغي أن تسري إلى يسارك ثم تدوم سيرك على استقامة... يخيل إلى أنك تناولت بعضاً من أقداح الخمر، فتنكبت سبيلك!

– نعم... لقد أتت يداي هذه الخطيئة، فما ثمت سبب للإنكار. ولن أعود فأركب هذا المتن الخاطئ ثانية... بالله أين الطريق الذي علي أن أسلكه؟

– امض أمامك في هذا الطريق حتى تصل إلى باب المقبرة، فافتحه، وانطلق إلى حال سبيلك... حاذر أن تعثر بالخندق فتتردى فيه.. وستلاقي الطريق حيث يمكنك أن تصل إلى الطاحونة إن سلكته.

– اسأل الله أن يسبغ عليك وافر الصحة والخير... أيها الرفيق، ويطهرك من ذنوبك برحمته وغفرانه... ألا يمكنك أن تصحبني حتى الباب... فيضاعف ثوابك، فما أكاد أتلمس طريقي في تلك العتمة...

– كأني بك ترى عندي الوقت الذي أضيعه عبثاً في السير معك... امض وحدك.

– كن رحيما يرحمك الله... فسأصلي من أجلك. إني لا أكاد أرى طريقي فالظلمة حالكة... بالله أرني الطريق.

– أيدور بخلدك أن وقتي متسع لصحبتك أيها الشرير الكهل!

– نشدتك الله... قدني إلى الباب... لا أقدر على أبصار شيء، كما أنني أخشى هذه المقبرة وما يجول فيها من أرواح وأشباح... هيا معي يا سيدي... بالله رافقني...

– ليس سبيل إلى الخلاص منك ومن ثرثرتك، هيا إذاً معي أيها العجوز...

ومضى الرجلان متلاصقين في صمت رهيب... وهبت الريح صرصراً تصطك منها الأسنان، والأشجار ضاربة في جو السماء تصفر في رهبة كأنها صراخ الجن... وتساقط منها الطلل والندى... وقد تناثرت في ساحة المقبرة المناقع الضحلة...

وبغتة قال الحارس بعد أن طال أمد الصمت بينهما:

- ثمت شيء يثير حيرتي وتساؤلي! كيف تسنى لك أن تدلف إلى هنا مع أن الباب مقفل؟! أتسلقت الحائط!؟ لا أظن ذلك فأنت رجل هرم، فأنت آخر من أتي هذا العمل!

- لست أدري! أيها الرفيق... لست أدري كيف أتيت إلى هنا... لعمري إنها مشكلة... رحماك يا رب... لا بد أن الشيطان مس عقلي، ألست حارس المقبرة أيها الرفيق؟

- بلى...

- أنت وحدك تقوم بحراسة كل هذه المقبرة؟!

وارتفعت حينئذ ريح عاصف كادت أن تنتزعهما من مكانهما فلما هدأت حدتها عاود الحارس حديثه مجيباً:

- إنا هنا ثلاثة رجال: واحد مضطجع في فراشه محموم، والآخر مستغرق في نومه، ونحن الاثنين نتبادل الحراسة...

- حسن... آه، يالها من ريح عاصف يكاد أن يسمع صفيرها الأموات في قبورهم... إنها تزأر كالوحوش الكاسرة... آه... آه...

- ولكن من أين أتيت إلى هنا؟

- كنت عند صديق في إقليم (فولجدا) على مبعدة من هنا... إني أتجول من مكان إلى آخر حيث أصلي وأعظ... اغفر لي يا إلهي...

توقف الحارس هنيهة ليشعل غليونه، وقام الرجل العجوز بينه وبين الريح... وأبرق عود الثقاب على المطربة التي يسلكانها واستقر شعاعه على بعض أحجار القبر التي إلى جانبهما؛ فأشعل العود الثاني فتألق ضوؤه ثم خبا على حين فجأة... أما العود الثالث فألقى بشعاعه إلى اليمين وإلى الشمال، فتمكن من إشعال غليونه قال الرجل الغريب:

- إن الراحلين راقدون... الراحلين الأعزاء... إنهم يرقدون سواسية لا فرق بين غني وفقير، حكيم وأحمق، قوى وضعيف، إنهم على حال واحد الآن... وكذلك سيمكثون إلى أن ينفخ في الصور وتبعث الأموات من القبور... أن هذه الحياة الدنيا لفانية مضمحلة أما الحياة الأخرى فخالدة سرمدية. فقال الحارس في جلال:

- نعم... إننا لنسير في هذا المكان الآن، وبعد حقبة تطوينا هذه الأرض فنصبح نسياً منسياً...

- لا مجال للشك في ذلك... كلنا جميعاً... جميعاً إلى هذا المصير سائرون. وليس ثمة من يخلد على أديم هذه الأرض... أواه... إن أفعالنا لآثمة، وأفكارنا تطمح إلى آمال كالسراب. إن الخطيئة لتسيطر علينا وليس ثمة خلاص من قضاء الله سواء في الدنيا أو في الآخرة. وإني لغارق في خطيئاتي كالحشرة تسعي في جوف الأرض...

- أجل... ولربما موتك كان قلب قوسين منك!

- إنك لعلى صواب وحق، أيها الصديق...

فقال الحارس وهما يحثان الخطا نحو الباب.

- إن الموت لأدنى إليكم معشر الجوالين منا نحن من نستقر في الأرض على الدوام!

إن هناك أنواعاً متباينة من الجوالين يا سيدي. فمنهم من أنزل الله السكينة على قلبه، فراح يصلي ويعبد ربه. ومنهم من أصابه الفجور فراح يعربد ويأتي المنكرات وليس له رادع يردعه عن أفعاله. وإن هؤلاء يجولون في المقابر لتتصل أنفسهم بالشياطين.

وهناك من في مقدورهم أن يهووا بفأسهم على هامة

رأسك فتخر وقد بت على شفا الموت...

– هه... عم تتحدث أيها العجوز؟!

– آه... لا شيء... يخيل إلى أن هذا هو الباب... نعم إنه هو. أرجو منك فتحه...

فتلمس الحارس طريقه وفتح الباب، وقاد الرجل إلى الخارج من منكبه وقال:

– هذا هو منتهى المقبرة... وعليك بالانطلاق عابراً الحقول حتى تدرك الطريق، وحاذر الخندق أن تتردى فيه. وإذا ما لحقت بالطريق العام فانثن إلى يمناك وواصل سيرك حتى تصل إلى الطاحونة التي ترومها...

فزفر العجوز بعد فترة صمت:

– هيه... ولكن ما الذي يدفع بي إلى الذهاب إلى طاحونة (ميتريافسكي) إني أفضل البقاء هنا على المضي إلى هناك يا سيدي...

– وما الذي ترجوه من البقاء هنا؟!

– ستجد مني من يؤنس وحدتك، ويفرج عنك كربك.

- ألعلك رجل لطيف المعشر، حلو النكتة؟!

- بلا شك يا سيدي... فستضل تذكرني... تذكر ذلك الجوال على الدوام...

- ولم تظل ذكرى إنسان مثلك ببالي على الدوام؟!

قال العجز في صوت أصحل ساخر:

- هه... اسمع... إنك تمعن في الجفاء... وأنا أتبسط في الحديث... فما أنا بجوال كما أنبأتك!

- إذن من أنت؟!

- رجل ميت لقد خرجت الآن من لحدي.. ألا تذكر (جبرياف) القفال الذي شنق نفسه في عيد (الكرنفال)... حسن. إنه أنا (جبرياف).

- بالله خبرنا بشيء غير هذا...

لم يصدق الحارس لفظة مما قاله العجوز، ولكن سرت قشعريرة الهلع في جسده فراح ينتفض فرقاً... ويسرع بالنأي عن الباب، فقبض الرجل الغريب على كتفه وهتف قائلا:

– قف... أتمضي وتدعني وحدي أعاني مرارة الوحدة... فصاح الحارس وهو يحاول نزع ذراعه من براثن ذلك العجوز:

– دعني أذهبّ دعني أمض بسلام!

– قف... إني آمرك بالوقوف، وستقف حتماً... لا تناضل أيها الكلب الرعديد... إن كنت تبغي الحياة. فقف حتى آذن لك؛ هذا لأني لا أود أن أسفك دماً حقيراً كدمك أيها الخنزير الجبان... قف مكانك...

وتهاوى الحارس، وقد سرت عنه شجاعته فأغمض جفنيه وراح يرتعد ويرتجف وقد طارت نفسه شعاعاً... إنه يستطيع الصياح والاستغاثة ولكن عبثاً يحاول... فليس من حي تصل إلى أذنه صيحاته...

قام الرجل الغريب إلى جانبه وساعده في ثبات وقسوة... وانقضت ثلاث دقائق والكون غارق في صمت رهيب... فعاد الغريب يقول:

– واحد مريض محموم، والثاني غارق في النوم، والثالث يلقى الجوالين بجفاء وبرود... ألا بالله خبرني يا سيدي

الحارس كيف تستحقون مرتباتكم، إنكم كاللصوص ولكن في الخفاء. قف مكانك...

انقضت خمس دقائق ثم تلتها عشر والصمت لم ينفك مخيما على المقبرة... وعلى حين غرة... قطع هذا الصمت صوت صفير سرى في جنح الليل... فقال الغريب إثر ذلك وهو يطلق ذراع الحارس: (حسن... الآن... امض... امض، واذكر أن الله يرقب أعمالك الشائنة...)

ثم أطلق صفيراً - يشابه سرى مذهنيهة - وانطلق خارجاً من باب المقبرة... وسمعه الحارس وهو يجتاز الخندق قفزاً ووقف الحارس هنيهة جامداً لا يتحرك... يرتعد فرقاً... كأن الغريب ما زال ماثلا أمامه.

ولما انقلب عقبه في المطربة طرق أذنه أصوات لأقدام تتسارع في سيرها، وسؤال يجري على لسان يقول: (أنت (تيموفي)؟ أين (ميتكا)؟) وابتعدت عنه الأصوات فراح يجد في سيره حتى لمح شعاعاً يخفق في الظلام... فلما أمعن في الدنو، وضح له الشعاع فراح يردد:

- كأن النور يشع من الكنيسة! من أين أتى هذا الشعاع يا إلهي... فرج كربتي. .

دار الحارس حول الكنيسة حتى وقف أمام نافذة محطمة فراح يحملق نحو المذبح... في هلع وفزع.. وكانت هناك شمعة خلفها وراءهم اللصوص تخفق في رهبة، وتلقى الظلال الدامسة في الأرجاء... وقلب الحارس طرفه فرأى الخزانة مقلوبة محطمة وقد فتحت على مصراعيها، واختفى ما كان بها من كنوز وأموال...

وكذلك ذهبت القرابين وغيرها.. وأدرك الحارس سر ذلك الرجل الغريب الذي راح يداوره ويبعده عن الكنيسة حتى يهيئ الفرصة لزملائه اللصوص...

ومضت برهة، وعادت الريح تعصف وتصفر في جنون وكأنها تسخر من ذلك الحارس المسكين.

«الجزائر تقرأ»

ناظر المدرسة

ترجمة: محمد قطب

كان فيودور لوكيتش سيسوييف - ناظر المدرسة التابعة للمصنع الذي يديره كوليكين - كان يعد نفسه لحفلة الغداء السنوية. ففي كل عام بعد انتهاء الامتحانات كان المدير يقيم حفلا يدعي إليه مفتش المدارس الأولية والممتحنون ويحضره كذلك مديروا المصنع.

وعلى الرغم من الصبغة الرسمية التي كانت لهذه الحفلات فإنها كانت دائما حافلة بالحياة والمرح، وكان المدعوون يقضون فيها وقتاً طيباً ناسين ما بينهم من فروق. وكانوا يأكلون حتى يمتلئوا ويشربون ويتحدثون حتى تبح أصواتهم، ثم يتفرقون في المساء المتأخر وقد انطلقت حناجرهم بغناء صاخب تغطي حدته على ضجيج آلات المصنع!

وقد حضر سيسوييف من أمثال هذه الحفلات ثلاثة عشر إذ كانت قد مضت عليه ثلاث عشرة سنة في نظارة تلك المدرسة. والآن - هو يعد نفسه للرابع عشر - كان يحاول أن تبدو عليه السعادة وأن تبدو حركاته مضبوطة بقدر الإمكان. وقد مرت عليه ساعة كاملة وهو ينظف بالفرشاة بذلته الجديدة السوداء وقضى ساعة أخرى أمام المرآة وهو يرتدي قميصاً على آخر طراز. ولكن دبوس الرقبة لم يشأ أن يدخل في عروته بسهولة فثار الرجل وصخب وراح يوجه أعنف اللوم إلى زوجته ويهددها بعظائم الأمور.

وكانت زوجته المسكينة قد أنهكت قواها وهي تدور حوله لتقضي له حوائجه وتساعده على إعداد نفسه. والحق أنه هو نفسه قد خارت قواه آخر الأمر حتى إنه - حين أحضر له حذاؤه الملمع من المطبخ - لم يستطع أن يلبسه واضطر أن يضطجع حينا من الوقت ويشرب كوبا من الماء فتنهدت زوجته آسفة وقالت له (لقد غدوت ضعيفاً جداً، وكان الأجدر بك ألا تذهب إلى هذا الغداء أبدا).

فقاطعها غاضباً (لا أريد نصائح من فضلك!)

وقد كان ثائراً جداً... وكانت نتيجة الامتحانات الأخيرة تثيره أكثر من كل شيء. ومع أن الامتحان قد انتهى بصورة باهرة وحصل تلاميذ الفرقة الأخيرة على شهادات وجوائز أيضاً، وسر لهذه النتيجة رجال المصنع ورجال الحكومة سواء، إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً لحضرة الناظر... فقد آذاه أن التلميذ بابكين الذي لم يكن يخطئ في الإملاء أبداً قد أخطأ ثلاث مرات، وأن سرجييف كان شديد الاضطرات فلم يعرف حاصل ضرب 17 / 13، وأن المفتش وهو شاب غير مجرب - قد اختار للإملاء قطعة صعبة، وأن ليابونوف - وهو ناظر مدرسة مجاورة - لم يسلك مسلك الزملاء حين اختاره المفتش لإملاء القطعة بل جعل يبتلع الحروف ابتلاعا ولم ينطق الكلمات كما هي مكتوبة!

وبعد أن ارتدى الرجل حذاءه بمساعدة زوجته ونظر إلى نفسه في المرآة مرة أخرى، أمسك بعصاه المحببة وذهب إلى الحفل. وما إن وصل إلى منزل مدير المصنع حتى حدث له حادث بسيط فقد انتابه نوبة سعال عنيفة

فجعل يهتز حتى طارت قبعته من فوق رأسه ووقعت عصاه من يده. وما إن سمع المفتش والمدرسون سعاله حتى هرعوا إليه فوجدوه جالساً على أسفل السلم سابحا في بحر من العرق، فقال المفتش مستغرباً

- أهذا أنت يافيودور لوكيتش؟ هو. . . أتيت؟

- ولماذا لا أحضر؟

- كان يجب أن تكون في المنزل ياصديقي العزيز فلست اليوم على ما يرام.

إنني اليوم كما كنت بالأمس. . . وإذا كان وجودي يضايقكم فأستطيع أن أرجع.

- أوه يا فيودور. لا تتحدث بهذه اللهجة! تفضل بالدخول. إنك أنت تشرف هذا الحفل لا نحن. وإننا لمسرورون برؤيتك. . . مسرورون جداً!

وكان كل شيء في الداخل قد أعد للحفل. وكانت في حجرة المائدة المزينة بزهور (الجيرانيوم) مائدتان إحداهما - الكبيرة - للطعام، والأخرى قد وضعت عليها طائفة من المشهيات. وكان ضوء النهار الحار يدخل بقدر من

خلال الستائر المدلاة على النوافذ. وكانت مناظر الطبيعة المنقوشة على الستائر وأزهار الجيرانيوم وشرائح اللحم المرتبة في الصحاف. . . تعطي كلها جوا فطريا عاطفيا يلائم طبيعة صاحب المنزل وهو رجل ألماني طيب القلب صغير الجرم تلمع عيناه بالبشر والمحبة يدعى (أدولف أندريتش بروُني) وكان يدور حول المائدة الصغيرة نشيطاً متحمساً يملأ الأكواب بالشراب، ويملأ الصحاف بالطعام محاولا بكل طريقة أن يعبر عن صداقته وأن ينشر البشر على الجميع.

ولما رأى سيسوييف صاح (من ذا الذي أرى؟ فيودور لوكيتش! إن هذا بديع! لقد أتيت برغم مرضك. أيها السادة دعوني أهنئكم بحضور فيودور لوكيتش!)

وكان المدرسون في ذلك الوقت قد اجتمعوا حول المائدة يأكلون المشهيات، فقطب فيودور غاضباً لأن زملاءه قد بدأوا الطعام والشراب من غير أن ينتظروه. ولاحظ من بينهم ليابونوف الذي أملى الإملاء في الامتحان فاتجه نحوه قائلا:

- لم يكن سلوكك مما يجدر بالزملاء! أبداً! فإن السادة

الكرام لا يملون هكذا!

فقال ليانوف مقطباً (يالله! أما زلت تفكر في هذا الموضوع؟ أما سئمت الأخذ والرد فيه؟)

- بلى. مازلت أفكر فيه! إن بابكين لم يكن يخطيء أبداً! وأنا أعرف لماذا أمليت هكذا. لقد أردت أن تطوح بتلاميذي حتى تبدو مدرستك خيراً من مدرستي. إنني أعرف كل شيء!

فصاح ليابونوف محتداً (لماذا تحاول أن تقيم معركة؟ وأي شيء حدا بك إلى إغضابي؟)

فتدخل المفتش قائلا: (مهلا أيها السادة. هل يجوز أن يتحدوا على شيء بسيط كهذا؟ ثلاثة أخطاء. . . بدلا من واحد. . . هل هذا يهم؟)

- نعم، يهم. إن بابكين لم يكن يخطيء أبداً.

فصاح ليابونوف (إنه لن يترك هذا الحديث أبدا. وهو يستغل ضعفه ومرضه فيسبب لنا المتاعب جميعاً. إنني ياسيدي لن أعاملك كرجل مريض.)

فاحتد سيسوييف قائلا: (دع مرضي جانباً. فليس

لك به شأن. إنهم جميعاً يرددون في وجهي المرض. . . المرض. . . المرض. كأني محتاج إلى عطفك! ثم خبرني من أين جاءتك فكرة مرضي؟ لقد كنت مريضاً قبل الامتحان. هذا صحيح لكني شفيت تماماً ولم يبقى من أثر المرض إلا شيء من الضعف.)

وهنا قال مدرس الديانة الأب نيكولاى (لقد استعدت صحتك فاشكر ربك. وعليك أن تسر بهذا ولكنك سريع الغضب.)

فقاطعه سيسوييف قائلا: (وأنت أيضاً. . . ما كان أحسن صنيعك! الأسئلة يجب أن تكون مستقيمة وواضحة ولكنك ظللت تسأل ألغازاً. ليس هذا ما يجب صنعه!)

. . . وأخيراً فلحوا في تهدئته وأخذوه إلى المائدة. فظل يتردد فيما يشرب حتى قرر أن يشرب زجاجة كاملة من النبيذ ثم جذب إليه قطعة من فطير اللحم واستخرج ما حشيت به وقضم منه قضمة فخيل إليه أنها خالية من الملح فرش عليها الملح رشا وما لبث أن دفعها بعيداً إذ أصبحت الفطيرة غارقة في الملح. . .

وفي أثناء الغداء كان سيسوييف يجلس بين المفتش وبروني وبدأ شرب الأنخاب حسب العادات المتبعة. فبدأ المفتش بقوله: (إنني أعتبر من واجبي أن أقترح عليكم شكر الذين أخذ هذه المدرسة تحت كنفهما وإن كانا لم يحضرا هذا الاجتماع وأعني بهما دانيال بتروفيتش و... و... و...) فقال بروني يلقنه (وايفان بتروفيتش)

(وايفان بتروفتش كوليكين الذين لاياكلون جهداً في سبيل المدرسة وأقترح أن نشرب نخبهما...)

فنهض بروني واقفاً كالملدوغ وقال (أنا من جانبي أقترح أن نشرب نخب مفتش المدارس الأولية بافل جينادييفتش ناداروف! فنهض المدعون وأزاحوا كراسيهم وبدأوا يقرعون الأكواب وكان النخب الثالث دائماً من نصيب سيسوييف. وبهذه المناسبة نهض واقفاً ثم أخذ يلقي كلمته بعد أن اتخذ سماء الجد وتنحنح... وقد بدأ كلمته بقوله إن الله لم يمن عليه بموهبة البلاغة وإنه لم يكن مستعداً للخطابة. ثم قال إنه في خلال الأربعة عشر عاماً التي قضاها ناظراً للمدرسة كانت هناك دسائس تحاك وأياد تلعب في الخفاء. بل وصل الأمر إلى حد كتابة

تقارير سرية إلى السلطات التي بيدها الأمر. وقال إنه يعرف أعداءه الذين أدلوا بمعلوماتهم ضده ولكنه لن يذكر أسماءهم (حتى لا يفسد شهية أحد) وأنه برغم هذه الدسائس فإن مدرسة كوليكين كانت الأولى في المنطقة كلها (ليس من الناحية الخلقية فحسب بل من الناحية المادية أيضاً).

ثم قال (في كل مكان آخر يتناول النظار رواتب تتراوح بين مائتي روبل وثلثمائة بينما أتناول أنا خمسمائة روبل، وعلاوة على هذا فقد أعيد تقش منزلي وأثث على حساب المصنع وفي هذا العام غطيت الجدران بالورق.. .)

وأخذ الناظر بعد ذلك يتحدث عن كرم المصنع في تزويد التلاميذ بأدوات الكتابة بالنسبة لمدارس الحكومة. وقال إن المدرسة مدينة في كل هذا لا إلى رؤساء المصنع الذين يقيمون على بعد ولا يزورونها إلا نادراً، وإنما إلى الرجل الذي برغم كونه ألماني العنصر وعلى عقيدة لوثرن فإنه روسي في دخيلة نفسه.

وتكلم سيسوييف طويلا. . وكان يقف بين الحين والحين ليلتقط نفسه، وكان يتصنع البلاغة وحسن

التأثير حتى أصبح كلامه مملا ممجوجا. وظل يردد الإشارة إلى أعدائه ويكرر نفسه ويسعل ويمد أصابعه في الفضاء بإشارات غير مناسبة، وأخيراً أنهكت قواه وتصبب العرق من كل بدنه وانخفض صوته حتى لكأنه يحدث نفسه وختم كلامه بجمل غير مترابطة (وعلى هذا فأنا أقترح شرب نخب بروني أعني أدولف أندرييتش، الذي هو بيننا... وبصفة عامة... تفهمون ما أقول...)

وحينما انتهى من حديثه تنفس الجميع الصعداء كأنما رش أحدهم ماء باردا فصفا الجو.. ولم يكن قد بقي فيهم أحد على مرحه إلا بروني الذي شد على يد سيسوييف مصافحا وعاد وجهه ينضح بالبشر قائلا:

(أشكرك. وأشعر بسعادة عظيمة لأنك فهمتني! إنني أرجو من كل قلبي أن يكون كل شيء حسناً ولكن يجب أن الاحظ أنك تضخم من أهميتي كثيراً وإن نجاح المدرسة يرجع في الحقيقة إليك أنت يا صديقي. فلولاك أنت لما امتازت من أي مدرسة أخرى. وقد تظن أنني أجاملك، ولكني لا أجامل أحداً. وإذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل في السنة فلأننا نقدرك. أليس كذلك أيها السادة؟ إن ما

أقول صحيح. أليس كذلك؟ إننا لن نكن لندفع لغيره مثل هذا الأجر. والواقع أن المدرسة الطيبة السمعة هي شرف للمصنع!)

فقال المفتش (لايسعني إلا أن أقول إن مدرستكم ممتازة ولا تظنوا هذا رياءً، فإني لم أصادف مدرسة أخرى كهذه في حياتي. وبينما كنت أجلس لامتحان التلاميذ كان يغمرني الإعجاب.. تلاميذ مدهشون! إن معلوماتهم جيدة وإنهم يجيبون إجابات مشرقة وفي الوقت ذاته فإنهم - على نحو ما - ممتازون. ثم هم صادقون في عواطفهم، ويستطيع الإنسان أن يجزم بأنهم يحبونك يافيودور لوكيتش. إنك ناظر مدرسة لحما ودما. ولا بد أنك ولدت مدرساً. فإن فيك جميع المواهب، من ميل فطري وتجريب طويل وحب لعملك. وإنه - بالاختصار - يدهشنا - بالنظر إلى ضعف صحتك - أن نرى فيك كل هذا النشاط والفهم والمواظبة والثقة بنفسك. لقد وصفك أحدهم في اجتماع مدرسي بأنك شاعر في عملك. أجل إنك لشاعر!) وهب الحاضرون على الطعام كرجل واحد يتحدثون عن مواهب سيسوييف وكأنما فتح خزان فسال

طوفان من الكلمات الحماسية الصادقة. ونسي الجميع خطبة سيسوييف وحالته العصبية المنكرة ووجهه المعبر عن الحقد والكراهية. وجعلوا يتحدثون بحرية حتى أولئك المدرسون الجدد المستحون الذين كانوا لا يتحدثون إلى المفتشين إلا بقولهم (سعادتكم). وكان من الجلي أن سيسوييف - في محيطه - رجل ذو حيثية.

ولما كان قد تعود النجاح وسماع المديح مدة الأربعة عشر عاما التي قضاها ناظرا مدرسة فإنه كان يستمع بغير اهتمام إلى حماسة المعجبين..

وكان بروني هو الذي شرب نخب هذا المديح بدلا من سيسوييف، فقد انتبه لكل كلمة تقال وكان يصفق ويهلل وينحني متواضعاً كأنما كان كل هذا المديح خاصاً به هو لا بناظر المدرسة. وكان يصيح قائلا: (مرحى.. مرحى! هذا حق! لقد عرفتم ما أقصد!.. بديع!!)

وكان ينظر إلى ناظر الدرسة كأنما يريد أن يشاركه فرحه وأخيراً لم يطق صبراً، فقفز واقفاً وغطى بصوته جميع أصواتهم وهو يصيح: (أيها السادة! اسمحوا لي أن أتكلم! هس! أمام كل الذي تقولونه ليس لي إلا جواب

واحد: وهو أن إدارة المصنع لن تنسى ما أداه فيودور لوكيتش من الخدمات!)

وساد الصمت. ورفع سيسوييف بصره إلى وجه الألماني المتورد الذي عاد يقول: (إننا نعرف كيف نقدر مجهوداته. والجواب على كلماتكم هو أن أخبركم أن مبلغاً من المال قد وضع في المصرف في الشهر الماضي من أجل عائلة فيودور لوكيتش). فنظر سيسوييف متفهماً إلى الألماني وإلى زملائه كأنه غير قادر أن يفهم لماذا وضع المبلغ لعائلته وليس له هو. وفي لحظة واحدة استطاع أن يرى جميع الوجوه المنحدرة إليه، وفي العيون المثبتة نحوه، لا إحساس العطف ولا الشفقة التي لم يكن يحتملها، بل شيئاً آخر عطوفاً رقيقاً، ولكنه في الوقت ذاته مشؤم مخيف كأنه حقيقة واقعة. شيء سري كالقشعريرة في جسده وملأ قلبه بيأس دفين، فقام فجأة بوجه ممتقع وضرب وأسه بيديه، وظل هكذا ربع دقيقة وهو يحدق في نقطة أمامه، كأنه يرى الموت الذي تحدث عنه بروني... ثم جلس ثانية والدموع تنهمر من عينيه. وسمع من حوله أصواتاً فزعة تقول: ماذا؟ ماذا؟ ماء اشرب شيئاً

من الماء!) ومرت لحظة قصيرة هدأ خلالها الرجل، ولكن المجتمعين لم يعودوا إلى مزاجهم الأول. وانتهى الغداء في صمت كئيب، وفي وقت أسرع من كل المرات السابقة.

وحين عاد سيسوييف إلى المنزل ذهب تواً إلى المرآة ثم قال في نفسه وهو ينظر إلى خديه المترهلين وعينيه اللتين تحيط بهما هالة سوداء (حقا. لم يكن ما يدعوني أن أبكي كل هذا البكاء! إن وجهي اليوم خير منه بالأمس. وإن ما أعانيه هو الانيميا والزكام الناشىء من المعدة. وسمالي ناشىء من المعدة). وخلع ملابسه وقد عاد إليه اطمئنانه وقضى وقتاً طويلاً ينظف بالفرشاة بذلته الجديدة السوداء ثم طبقها بعناية ووضعها في مكانها. ثم ذهب إلى المكتب حيث تراكمت كراسات التلاميذ فأخرج من بينها كراسة بايكين وجعل يتأمل في جمال خطه. . .

وفي الوقت ذاته - بينما كان هو يفحص كراسات التلاميذ - كان طبيب المنطقة يجلس في الغرفة المجاورة ويهمس في أذن زوجته أنه لم يكن يجوز أن يبيح الذهاب إلى حفلة غداء لرجل لايحتمل أن يعيش أكثر من أسبوع.

لما عادت مربيتي إلى الغرفة
كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل
وعينيها البراقتين، وكان السر
الذي أكتمه يكاد يمزقني فقلت:
لقد عرفت! لقد رأيت!
قالت: (ما الذي رأيته، وما الذي
عرفته؟)
فقلت: (رأيت أخي يقبلك وأنت
تقبلينه عند البحيرة)
عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد
في عينيها، وجلست خائرة القوى
على المقعد ولم تنطق بحرف،
وأعدت جملتي وزدت عليها:
(انظري حتى أخبر أمي).

جميع كتبنا متوفرة للشراء عبر
DZREADS.COM
الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»